

دَيَامِيشُ

شهادة من جحيم الأفرع الأمنية السورية

الطبعة الأولى

1446هـ

2025 م

اسم الكتاب: دِيَامِيسُ

التأليف: ياسر حسان العيد

تنسيق وإخراج: أسماء جمال

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 208 صفحة

عدد الملازم: 13 ملزمة

مقاس الكتاب: 14x20

عدد الطباعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2024 / 08

الترقيم الدولي: 978 - 106 - 896 - 14 - 03



يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل
طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة،
والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي،
وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم



elbasheer.marketing@gmail.com

01012355714 - 01152806533



من سلسلة: حكايات لا تصلح للفران

دياميس

شهادة من جحيم الأفرع الأمنية السورية

تأليف

ياسر حسان العيد

دار البشير

إلى الذين قضوا ربيع عمرهم في السجون يملون بالحرية من جديد..

إلى زملائي في الرنازين في فرع الأمن العسكري وفي فرع الدوريات وسجن عدرا..

إلى أولئك الذين حاولوا تدوين ما حدث في المعتقلات..

إلى العسكريين الذين حاولوا الانشقاق ولم يحالفهم الحظ وانتهى بهم المطاف في غياهب السجون..

إلى الطيبين في السجون الذين زرعوا فينا الأمل في وقت يصعب فيه التفكير ببصيص منه..

إلى أولئك الذين سعوا خارج السجون جاهدين ليسمعوا خبراً عن شخص يخصّهم داخل السجن فلم يحالفهم الحظ، أو قد حالفهم..

لا تبدأ هذه الحكاية من الضوء، بل من العتمة.

من زنزانة بلا نوافذ، ولا ساعة، ولا أسماء.

من تحت الأرض، حيث يموت الناس بلا جنازات، ويعيشون بلا أيام.

دياميس، جمع «دياس»، وهي تلك السرايب التي لا يعرفها إلا من وُلدوا فيها من جديد بعد أن ماتوا مرّات.

في هذه الأوراق، لن نجد خطاباً سياسياً، ولا تحليلاً تاريخياً، بل وجعاً
خاماً، يُروى كما هو، بلا تنقيح، بلا مساحيق.

هذا النص لا يطلب التعاطف، بل يطلب بالتذكر. لا يستدرّ
الدموع، بل يسجّل الحقيقة، كما عاشها صاحبها، بكل قسوتها، بكل
بشريتها، بكل صمتها.

هذه شهادة، لا حكاية.

وإن بدت قاسية، فلأن الحقيقة في بلادنا لا تُروى إلا بالدم.

* * *

أين أنا، أعرف هذا المكان، لحظة..

ذلك هو والدي، وتلك هي جدتي تتكىء على عصاتها.

أعرف هذا المكان..

أشجار المشمش على يساري، كلما نظرت إليها عصفت بي الذاكرة وأنا طفل صغير أتسلقها.

شجرة توت كبيرة تبعد عني بضع عشرات من الأمتار على الجهة اليمنى، يبدو أنني أعرفها تمامًا، وأعرف كل غصن فيها.

أشجار الزيتون خلفي، تبدو مألوفة جدًا، يتخللها شجر إجاوص يبدو أن هنالك ثلاثًا منها..

لحظة، أنا أعرف ذلك البيت..

إنها مزرعة جدي..

ما الذي أفعله هنا؟!

دقيقة، فوالدي يضرب بالجاروف الأرض.. أمعنت النظر قليلًا، وإذا به يلقي عُشًّا لثلةً من الأفاعي خارجةً من جوف الأرض تسعى!

ها هو يحاول جاهدًا قتلها، لكنها ما انفكت تخرج أكثر فأكثر، وكأنه ينبع من الأفاعي يسري..

وها هي جدتي خلفنا تدعو وتصلّي، وأنا لاحول لي ولا قوة، لا أستطيع الحراك، ولكنني أستطيع الوقوف، أستطيع التلفت يمينا أو يساراً ولكنّ قدميّ ثابتتان على الأرض، لا أستطيع تحريكهما.. ترى ما الذي يحدث؟ إنه أشبه ما يكون بكابوس مرّيع!

استيقظت هلعاً، فاستعدت من الشيطان. نعم، لقد كان كابوساً، وأيّ كابوس! نفضت النوم من عيني، واستعدت من الشيطان مرة أخرى لأبدأ يومي الجديد.

اليوم هو السابع عشر من شهر كانون الأول الموافق لعام 2011م، لقد كان يوماً ليس كأَيِّ يوم، استيقظت في صبيحته باكراً قرابة الساعة السادسة والنصف، غسلت وجهي، تناولت الفطور الذي كانت أختي قد أعدّته، صليت الفجر متأخراً (قضاء) ثم بدأت أعدّ عِدّتي للذهاب إلى الجامعة، بدأت بدفاتري الثلاثة، ثم كتاب الدوائر، ونوتة الورشات وبضعة أقلام ملونة: قلم حبر أزرق للكتابة، وقلم أسود لكتابة المعادلات، وقلم أحمر لكتابة العناوين، وثلاثة أقلام رصاص كنت قد اشتريتها لمادة الرسم الهندسيّ، وما زلت أحتفظ بها. تفقّدت محفظتي الخاصة، كانت النقود خمسين ليرة سورية من الورق، خمس وعشرين ليرة من المعدن، و عشر ليرات، وثلاث عملات من فئة الليرات الخمس لأحاسب بها سائق الميكروباص. كل شيء كان جاهزاً، كل شيء في

مكانه. تأكدت مرة أخرى أن كل شيء موجود، ثم أخذت طريقي إلى الجامعة. ويومها أحببت أن أجرب طريقًا جديدًا غير الذي كنت أسلكه، حيث كانت العادة أن أسلك طريق التضامن صناعة، فأبدأ بأخذ ميكرو تضامن من آخر موقف له في حي التضامن، وأنزل عند كراجات درعا لأخذ ميكرو آخر (المهاجرين - صناعة) المتجه باتجاه الصناعة. وطريق التضامن صناعة كان دومًا مزدحمًا، النصف ساعة عليه تمضي وكأنها ثلاث ساعات، كان اثنا عشر راكبًا محظوظًا يجلسون على الكراسي، بينما وقف خمسة ركاب آخرين، ويتحول الميكرو فيها إلى مرطبان من المخلل المكبوس، وقد كان حظي دومًا أن أكون من الخمسة الواقفين.

لكن اليوم مختلف، فقد أحببت أن يبدأ هذا اليوم بشيء جديد، بمغامرة جديدة، ربما لا ترقى لأن تكون مغامرة، ولكن كما يقولون في الأفلام: «change is always better»، تلك الجملة كانت ترن في بالي كثيرًا عندما كنت أسمعها في الأفلام: «التغيير دائمًا أفضل».

لماذا التغيير دومًا أفضل؟ ولماذا أغير روتيني و أتناول طعامًا جديدًا قد لا أستسيغ طعمه وأنا أستطيع أن أتناول وجبتي المفضلة يوميًا؟ الأمر ببساطة لأن تناول وجبة غير الوجبة المفضلة يعطي شعورًا بالشوق للوجبات التي تفضلها، وفي المرة المقبلة التي تعود فيها لتلك الوجبة

ستدرك ما أقول، فالروتين يقود إلى الملل وقتل اللذة في الاستمتاع بكل شيء جميل حولنا.

خرجت من البيت قُرابة الساعة السابعة إلا الربع، واتجهت باتجاه بلدة يِلدا، أسلك طريقاً جديداً، لم أسلكه من قبل. الخطة اليوم أن أكسر الروتين وأخذ ميكرو بييلا برامكة بالاتجاه الآخر، ليس باتجاه البرامكة ولكن باتجاه بلدة بييلا. انتظرت الميكرو قليلاً في الجهة المقابلة لجامع أمهات المؤمنين، حتى أقبل أول ميكرو، ولحسن الحظ كان يتوفر فيه العديد من المقاعد الشاغرة، فكانت أول بشائر التغيير، ركبت الميكرو باص، وكان تغيير ثانٍ، تنهيدة فرج لي، نعم الموسيقى! سألتك حبيبي لوين رايجين، نقلة نوعية في الموسيقى، انتقلنا من أغاني سارية السواس التي كانت تملأ مكاري تضا من مسبق الصنع و تملأ رأسي ضجيجاً عند الصباح إلى فيروز، حيث الرقة والهدوء في الكلمات والموسيقى، سألتك حبيبي لوين رايجين. وكأن فيروز تبارك لي نقلتي واختياري لطريق بييلا بيت سحم! ثم تنتقل لتقول إذا كنا عطول، لتقينا عطول ليش متلفت خافين، وكأنها تقول لي إن هذا الطريق الجديد لنا، وسنسلكه في الفترة القادمة دون خوف.

أحببت هذه النقلة وهذا اليوم، متناسياً كابوس الصباح، يبدو أنه يوم مختلف، وكأن الروتين قد كسر حقاً. جلست بجانب النافذة وصرت أتأمل المنطقة، حيث إنه لم يسبق لي أن رأيت الجهة الأخرى من بلدة يِلدا،

تبدأ المدينة ببنائات جميلة المظهر على جانبي الشارع، ومن خلفها بنايات أقل جمالاً ثم أقل جمالاً إلى أن تصل بعدها إلى العشوائيات.. كانت أشبه بنموذج مصغر من سوريا، كل شيء يبدو جميلاً على الشوارع الرئيسة، وكلما تعمقت أكثر، أو اتجهت بعيداً عن الشوارع الرئيسة، رأيت ما لا تريد الدولة منك أن تراه، فكل شيء فارح فاحش الثراء جميل المظهر في البداية، ثم ما تلبث الأحياء الفقيرة أن تظهر خلف كل شيء.

مرّ قرابة الدقائق العشر، ووصلنا إلى آخر موقف، ومن هناك ركبت الميكروباص باتجاه موقف الهمك.

إنه تغيير دام قرابة النصف ساعة، ولكنه كان كفيلاً بتغيير مزاجي طوال اليوم، وبعد هذا الصباح لن يعكر من مزاجي أي شيء، فأنا اليوم شخص جديد، يملك روتيناً جديداً قد بدأ حياة جديدة. قلت ذلك في نفسي متناسياً الكابوس الذي رأيته.

وصلت إلى الجامعة وبدأت المحاضرات. وقرابة الساعة الثانية عشرة مرّ بي أحد الأصدقاء وأخبرني أن سكرتيرة العميد سألته بما نصّه «عندك علم ياسر العيد شو عندو لابات اليوم؟»، وكان جوابه: ورشات الساعة 4. لم ألقِ بالآ لما قال، تابعت يومي إلى أن بدأت حصة الورشات، وإذا برجل أمن يسأل عني، ناداني مشرف الورشات، فذهبت إليه.

وبدأت المحادثة، بدأت بقوله: أنت ياسر العيد؟ نعم أنا، تفضل، كيف فيني أخدمك؟ مبدئيًا جوابي كان جواب صد رد، أو ما هو متعارف عليه في الردود عند الشوام عندما يسألك شخص عنك تحديدًا. المساعد أبو قصي، مسؤول الأمن بالجامعة.. أهلاً وسهلاً!

بس حابب آخذ من وقتك دقيقة.

كان أمره غريباً بداية، لم يتحدث معي بلهجة ساحلية ثقيلة، ولم يكن ذا وجه خشن أو ذانية سيئة، عادة مسؤول الأمن يبدأ بالقذف والشتم وينتهي بـ «اشحطولي هلهيوان، والله لربي فيك لقروود لزرُق» بلهجة ساحلية ثقيلة. لم أخف أبداً منه، فحتى ذلك التاريخ، لا أذكر أنني شاركت بأية مظاهرة في دمشق؛ ليس لأنني ضد المظاهرات، ولكن لكون الحي الذي أسكن فيه مليء بالأمن، ويصعب خروج أية مظاهرة بعد صلاة الجمعة. زميل ياسر، طالبينك الفرع 227 حابين يستفسرون منك ع كم مشغله، إذا حابب تروح، روح. إذا مو حابب مانها مستاهلة المشغلة.

وكان جوابي سريعاً أي مو مشكلة، فيني روح السبت يلي بعد هاد؛ كوني أعلم علم اليقين بأنني لم أشارك بأي احتجاج، إضافة إلى كوني على علم بأن إدارة جامعتنا حاولت جهدها بتوقيع تعهد على أي طالب شارك بالاحتجاجات وطلب لأي فرع أمن.

ببساطة لا توجد أية تهمة موجهة إليّ.

رجعت إلى البيت وأخبرت والدي بما حدث، لكونه يعرف عدة أشخاص في فرع الأمن العسكريّ، قد ساعدوه في الماضي لضرب فيشة أو لنقل عساكر يعرفهم من منطقة نائية إلى منطقة قريبة من درعا، طبعاً أخذوا معلوماً.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى الجامعة، لا شيء يذكر سوى أنني رأيت أبا قُصَيٍّ وألقى عليّ التحية، فزاد من ريتي في الأمر، يا ترى هل كان يراقبني، أم كانت مجرد صدفة؟!

سألت طالباً كان يعمل عميلاً للأمن في الجامعة إذا ما كان سلخني تقريراً لدى الأمن العسكريّ، وكان جوابه بسيطاً، هنت ما شاركت بمظاهرات وما عليك شيء حد علمي. إذا طلبوك ميكونو بدهم معلومات عن حدا بدرعا، هنن ميسألو كل الدرعاوي حالاً بس تيورجو الناس إنو هن لمسيطرين.

لم يكن هذا الطالب يتحدث العلوية قبل الاحتجاجات، لكن تغيرت لهجته من الشامية إلى لكنة ضباط الأمن بعد اندلاع الاحتجاجات.

وكانت كلمته مطمئنة لكوني على علم بأنني بريء، ولكن إن كان هناك من رفعني تقريراً فسيكون هو بالتأكيد.

عدت من الجامعة، أخذني والدي على جنب و طمأنني بأن سجلي نظيف عند الأمن، وأمرني أن أحاول الابتعاد عن التجمعات، وأخبرني بأنه مذكور عني أنني دائماً أكون وسط تجمعات، ليست تجمعات ضد السلطة، ولكن السلطة في سوريا كانت تخاف من أي تجمع، حتى وصل بهم الحال إلى أن يمنعوا أي تجمع، فأني تجمع لأكثر من شخصين هو عبارة عن عمل مشبوه..

لم يكن هذا كل ما ذكر والدي، بل أخبرني بأنه مذكور عني أنني دائماً أحمل سجادة صلاة في الحقبة، وأني أصلي بالجامعة، وقال لي: حاول أن تتواري قليلاً.

ووالدي هو أقرب شخص إليّ، لم ينهني يوماً عن أي عمل كنت أعمله؛ لكونه على علم بأنني لا أعمل عملاً قد يجلب المشاكل، وأن أموري دائماً مدروسة، على الأقل ضمن نطاق ما أستطيع.

واليوم السبت الموافق 26 كانون الأول سنة 2011م، استيقظت باكراً وجلست مع والدي، أحضرت له الفطور، وكان أن اتصل بصديقه في فرع الأمن العسكري، وطمأنه الضابط بأن «ياسر ما عليه شي، ما عندي علم ليش طالبيه!»

كان والدي أكثر قلقاً وحذراً مني.

الاستجواب

ذهبنا لزيارة أحد المعارف قبل التوجه إلى فرع الأمن العسكريّ، ثم توجهنا إلى مكتب العميد ودخلنا الغرفة، وكانت بحجم بيتنا، وللوهلة الأولى ظننتها مكتب العميد، لكنني عرفت لاحقاً أنها كانت غرفة حاجب العميد... غريب أمر هؤلاء المسؤولين، يطالبون الشعوب بالصبر ويجلسون في مكاتب أكبر من بيوت نصف الشعب، عميد ركن مكتبه أكبر من شقتين، ومكتب حاجبه أكبر من شقتنا!

وبعد انتظار دخلنا المكتب، كانت مساحته تزيد على 200 متر مربع مفروشة بفرش من خشب الزان، تحتوي على تلفاز ضخم لم أرَ منه سوى في إعلانات الـ MBC.

ألقينا التحية وجاوبنا بالمثل، لم يكن وقعاً في كلامه لكونه كان يأخذ المعلوم، ولك أن تتخيل أن ضابطاً بحجمه كان يقبل كيلو من العسل كرشوة لإخراج معتقل من السجن، التفكير في الأمر بحد ذاته كان يقشعر له البدن! يفك المعتقل من حبل المشنقة مقابل كيلو من عسل لا يساوي ثمنه عشرة دولارات. بالنسبة للضابط، الدولارات العشرة كانت أحسن من بلا، وهو مصطلح سوريّ بمعنى أنها أفضل من لا شيء.

سألني العميد إن كنت قد شاركت في الاحتجاجات، وإن كان لي أي دور «من قريب أو بعيد»، وكان جوابي سريعاً بالنفي القاطع، وأني لم أزر درعا منذ عدة أشهر.

وجوابي كان ببساطة يظهر جهلي؛ لكوني على علم بأنهم لا يحبون من يعرف زيادة، وللحق كانت إحدى أكثر التهم شيوعاً في المعتقلات هي أن المتهم «يعرف زيادة»، وهي استعارة فحواها أن المتهم يملك طبعاً فضولياً، وأن فضوله قاده إلى أن يسأل أسئلة في الممنوع.

والممنوع في سوريا هو ليس المخدرات والاتجار بها؛ وإنما الممنوع ببساطة هو التكلم في السياسة؛ أن يتكلم المواطن بأي خبر لا يظهر على شاشة التلفاز السوري؛ الشاشة التي لا تنتج إلا ما هو فاسد، فشاشة التلفاز السوري تتميز بأخبارها الكاذبة وبرامجها التافهة التي أنتجها مخرجون قرييون من السلطة، إنهم مخرجون ابتعثوا على حساب حزب البعث ليدرسوا في جامعات أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي، وتخرجوا من الجامعات بالرشوة، وامتهنوا الرشوة سبيلاً لتمهيد طريق نجاحهم، ولم ينتجوا سوى ما هو عارٍ عن المصادقية والمهنية.

كان جوابي بالنفي أني لم أزر درعا في الآونة الأخيرة، مما يشير بديهياً إلى أنني أنفي أنه كان هناك أية احتجاجات في دمشق.. وقد أجرى

الضابط اتصالاً بالمحقق الذي سيتولى التحقيق معي، وسأله عن التهمة الموجهة إليّ، وهز رأسه قليلاً وأنهى مكالمته، وأخبرني أنه مجرد تقرير، وأنا سيأوقع على تعهد «وشغله شكلية».

أخذني العسكريّ إلى مكتب الضابط في الفرع 227، الفرع لم يكن يختلف عن تصميم المدارس والجامعات، وعندما رأيته للوهلة الأولى تملكنتني الضحكة؛ فجميع تصاميم المباني الحكومية متشابهة جداً، وهذا يؤكد أن لجميعها نفس المتعهد ونفس التصميم، وأي شخص يمكن أن يستنتج هذا، فالمدرسة والدائرة الحكومية والجامعة والوزارة ومبنى المخابرات والأفرع الأمنية كلها تمتلك نفس التصميم. وكيف يريدون لنا أن لا نلاحظ هذا، مضحكون هم للغاية ومغفلون!

دخلت غرفة المحقق، التفتُ يميناً وشمالاً باحثاً عن كرسيّ، نظر إليّ حاجب المحقق وقال بلهجة علوية ثقيلة: بدك كرسي ما هيكلي، الأستاذ ما متعود يوقف والله لتقعد لتشبع بس استنى علي.

لم أفهم مقصده ولكن أيضاً تملكنتني شعور سلبيّ، لكون كلمة «أستاذ» عند العسكريين ترمز إلى الدون أو الشخص الوضع، وعجيب أمرهم!، فالجميع ينظرون إلى الأستاذ نظرة لا تقل احتراماً عن نظرة الأب لما في التعليم من رسالة سامية، ولكن جماعة السلك* ينظرون إلى المتعلمين

نظرة استحقار واشمئزاز، إنهم يشمئزون منهم. وقد نتجت هذه النظرة عن عقدة النقص التي تملكتهم؛ لكون معظمهم تركوا الدراسة باكراً ليتطوعوا في الخدمة الإلزامية، وصدقوا بأنهم يحمون أطيايف الشعب الأخرى لأنهم الـ «ALPHA» النخبة أو الصفوة، وكل من لم يلتحق بهم ليس أكثر من دونٍ وضيعٍ، عائلٍ عليهم ليحمي نفسه.

وجاء المحقق فهزئت رأسي تحية له، وأراد الحاجب قتلي بعدها؛ لكوني بحركتي تلك قللت من احترام سيده، الذي هو أعلى مرتبة منه، والحاجب بدوره يظن أنه أعلى مرتبة مني في هرم السلطة، فعدم احترام سيده الذي هو بدوره يضرب له التحية عشرات المرات يومياً يعني أنني لا أعرف منزلتي الحقيقية، وحرك ذلك عقدة النقص عنده التي أوهمته طوال خدمته في السلك أنه أعلى مرتبة من المواطنين المدنيين، وأن أي مواطن يظن أنه في نفس المستوى الاجتماعي لسيده الذي هو أعلى منه يمثل سلوكه هذا ازدراء لهرم السلطة الذي هو جزء لا يتجزأ منه، وأحس الحاجب حينها بضرورة كتم ذلك الشعور فقام بضربي بأخصص سلاحه، وبقي إلى أن أمره المحقق بالانصراف، وبعدها نظر إليّ الحاجب نظرة من نوع آخر فحواها أنه إن كان قد فكر في قتلي قبلاً فإنه الآن قد أصر أكثر على فعل ذلك.. لم أفهم الدافع وراء تصرفاته؛ لماذا يكرهني

كل هذا الكره، لم أقابله في حياتي يوماً، فما السبب الذي يدفع شخصاً كهذا إلى أن يكرهني كل هذا الكره وأنا لم أضمر له أيّ سوء؟! حاولت أن أتذكر إن كنت قد رأيته قبل ذلك، راودتني شكوك أيّ ربا أكون قد أهنته في السابق دون أن انتبه، راجعت تحركاتي وكلامي معه، أنا متأكد تماماً بأنّي لم أسئ إليه بأيّ شكل كان.

سألت الضابط إن كنت قد قمت بأيّ فعل يسيء إليه، وأعجبني بقوله: ما عليك منه ورانا شغل.

سألني عن اسمي الثلاثي فأجبته،

أخرج ملفاً يحتوي على أكثر من مئة صفحة غلافها من الخارج هو اسمي الثلاثي، أصابني الدهول لدقائق، أنا نفسي لا أستطيع أن أكتب عن نفسي أكثر من خمس صفحات، فكيف لهم أن يكتبوا عني كل ذلك! وعندها تذكرت الحلم الذي حلمته، عدد كبير جداً من الصفحات كلّها مكتوبة عني، ذكرني ذلك بعش الأفاعي وأعدادها الجمة التي ما انفكت تخرج من جحرها فتسعى، ووالدي الذي يحاول جاهدا قتلها ولكنها تزداد عدداً، ربما كانت الأفاعي تحاول نفث السم الزعاف، كما لو أن شخصاً يحاول جاهداً أن يضرّني ويؤذيني، ومهما حاول والدي قتل الأفاعي فإن مصيري أن أكون سجين هذه الأفاعي!.

للصراحة فإن حياتي قبل المعتقل لم تكن حافلة بأي شيء؛ طالب مجتهد يذهب إلى الجامعة، يرجع إلى البيت، يدرس دراسته ينام سبع ساعات، يستيقظ للذهاب للجامعة، وربما زاد على ذلك في وقت ترفيه مشاهدة فلم هنا أو مسلسل هناك، لا نشاطات خارجية ولا احتفالات من غير سبب.. لا زلت مذهولاً من حجم ذلك الملف الذي أخرجه المحقق!

وقد كان سؤاله الأول طلباً، ببساطة طلب مني أن أكتب له حساباتي الثلاثة على الفيس بوك مع كلمة السر، كنت محتاطاً لذلك، فكنت أملك أربع حسابات؛ حسابي الشخصي، وحسابين احتياطين إن حدث أي شيء لحسابي الرئيس، وحساباً للثورة.

سألني بنبرة عالية وليفش عندك ثلاث حسابات على الفيس بوك، وكان جوابي بارداً لا يثير الشكوك، ببساطة قلت له إنه تم حذف حسابي الأول، فأنشأت حساباً ثانياً تم حظره بعدها إلى أن أنشأت الحساب الثالث، وتعلمت بعدها أن لا أرسل الكثير من طلبات الصداقة؛ لكون الفيس بوك يقوم بحظر الحسابات التي تقوم بالإضافات العشوائية الكثيرة خاصة عندما يكون الحساب حديث الإنشاء.

وفاجأني الضابط بجوابه بعدها فقال: بايتتك بتعرف كثير رنت كلمته في راسي، وتذكرت يوماً قال لي فيه صديقي يامن: ياسر إنت مرات بتتفلسف زيادة، هي ممكن تجيب آخرتك، يلي «يعرف

زيادة» تهمة كبيرة دير بالك. عدت لوعيي بعدها كي لا أطيل الجواب وأجبت: لا يا سيدي بس أكلناها مرتين تعلمنا بالتالته مو أكثر.

رفع سماعته واتصل بما يبدو أنه فرع المعلومات، وأعطاهم حساباتي الثلاثة وطلب أن يبحثوا إن كانت تحتوي على أي شيء ضد الدولة، وجاءه الجواب لاحقاً بأنها حسابات نظيفة.

وقال لي بعدها، شو يا ياسر سمعنا الدولة مو عاجبتك، قال بدك تغيير رئيس الحكومة!

وأجبتة بنعم، وبأن رئيس الحكومة ناجي عطري فاسد، وبأنه لم يصنع شيئاً للبلد، وأنه فعلاً حدث ذلك بتاريخ 29 /03 /2011

فهز المحقق رأسه بالإيجاب، وأني على صواب،

كان المحقق ينتظر مني جواباً مختلفاً، وأن أقول بطريقة أو بأخرى إن بشاراً رئيس الحكومة، وأنا ضدها، والمضحك أن الحكومات في كل دول العالم تشير إلى مجلس الوزراء، وجميع من على هذا الكوكب يعلم ذلك، إلا أنه يبدو أن المحقق والشخص الذي كتب التقرير في لا يعلمون ذلك. لا أنكر أن قصدي كان بشاراً الأسد، ولكن الاعتراف بذلك يعني سنوات من التعذيب؛ تعذيب يتمنى الشخص فيه الموت ألف مرة.

مفجع أن يحقق معك شخص يجهل ما يقول، والفاجعة الكبرى أنه ضابط رفيع المستوى، ويفترض في الضباط في سوريا أن يدرسوا السياسة والاقتصاد، أو أن يملكوا وساطة تغنيهم عن كل ذلك. وعلى ما يبدو فإن المحقق الذي حقق معي كان من جماعة الوساطة وحرف القاف المثقل.

سألني عن أسماء لمسلحين أعرفهم، وأجبتة بعدة أسماء لأشخاص رأيتهم على التلفاز في تحقيق أظهرته شاشة التلفزيون السوري في إحدى المقابلات المزيفة التي ينهالون علينا بها أسبوعياً فيما ما يسمى بكشف المستور، ولكنه قد انكشف الأمر، وانفضحت المؤامرة.

وبعدها طلب مني الوقوف بالخارج لبضع دقائق لبيت في أمري، لكن الدقائق تحولت إلى ساعات، وأنا أنتظر في الخارج، لم أملك ساعة وقتها، ولكن علمي بالوقت كان من خلال حركة الظل خارج الشباك، أو من خلال صوت الأذان، وأذكر أنني دخلت الفرع 227 في الساعة 11:30، والآن أسمع صوت أذان الظهر، مما يدل على أن ساعة قد مضت.

وخلال تلك الساعة دخل الحاجب وخرج أكثر من ثلاث مرات، وكان في كل مرة يخرج تزداد نظرة الحقد في عينيه، حتى أنه قال لي بلهجته

الساحلية: أنا اطلع دراج مشانك يا عر** والله لربيك من أول وجديد بس استنى!. لم أبادله الجدال ولم ألقِ بالاً لما قال؛ وذلك لسبب رئيس وهو أنَّ أحد أصدقائي زار الفرع منذ أسبوعين ونبهني إلى أن الحاجب كان وقحاً طوال الوقت، وطلب مني صديقي إذا زرت الفرع أن لا ألقى له بالاً، فهو يحاول أن يلصق بي أي تهمة تبقيني عندهم؛ فنحن الشعب بالنسبة لهم لسنا أكثر من دونٍ مسبب للمشاكل.

ومما زاد الطين بلة أن جاء حاجب آخر، ووقف مع حاجب المحقق، وبدأ يحقق معي على الباب عن التهمة الموجهة إليّ، فأجبتّه بسرعة أنني لا أعلم حتى الآن،

فرد بسرعة بلهجته الساحلية: تبلي ما هيك، نحن ما نتبلى عليك، ما عنا شغلة عملي إلا نتبلى على هالشعب المسكين،

وعندها قام حاجب المحقق بضربي على وجهي، ورد تبلي كمان، قاعد بحضنا بتنتف بدقنا شو كمان عندك؟

لم أجب بشي بعدها، فهذان الحاجبان يغيران كل شيء أقوله.

وضربني بعدها الحاجب الآخر وقال: شو أمعين عينيك يعني؟ ما تطنشنا كمان، شو ابشتغل عندك كايين وأمعنا خبر. حط عينك بعيني لما أحكي معك ولك..

ونظرت إليه بعدها، كان نحيلًا قصيرًا، يصغرنى سنًا وحجمًا، كنت في الثانية والعشرين، ويبدو أنه في التاسعة عشرة، قلت له لا تطنّيش ولا من يعلمون.

وسأل حاجب المحقق عن تهمتي، فأجابه بأن لي نشاطات على الفسفوك، بعدها نظر إليّ وقال بلهجته الساحلية: ما تطلع بوجهي، ما تحفظو كمان ولا، بدك تنتقم مني بس تطلع والله الضو ما حتشوفو. وأجبت بأني لا أحفظ الوجوه، وأن لا غاية لدي بأن أنتقم، فأنا لست أكثر من شخص مسلم يحاول جاهدًا ألا يؤذي أحدًا.

ورد قائلاً: مسالم لكان، بتنادوا سلمية وبتشيلوا سلاح بس والله لنبيدكم قبل ما تشوفوا الضو.

مسلمين وسلمية وقتال وإبادة، أنا متأكد أني لست ممن تتحدث عنهم.. كنا بالنسبة لهم عدوًا يستطيعون سحقه، يقدرّون عليه؛ لكونهم مثقلين بالهزائم من ستيّيات القرن الماضي وحتى الآن، لم يعرف الجيش السوريّ طعم الانتصار في أية معركة خاضها، وهم يجدون عذرًا لكل هزيمة؛ خسروا في عام 67 وقالوا: لعدم توفر السلاح، وخسروا في عام 73 فقالوا: لأن مصر أوقفت الحرب على جبهتها، ولكنهم عرفوا طعم النصر عندما أبادوا حمّاه في عام 82 فيما يعرف بثورة الإخوان المسلمين،

حيث حاصر رفعت الأسد حماه وبدأت بعدها عمليات الإبادة الجماعية المنهجية؛ فحينها فقط عرفوا سبيلاً إلى النصر، وقاتل الشعب الأعزل كان خلطة نصرهم السحرية، فأصبحت لهم نشوة خاصة عندما يتعلق الأمر بسحق الشعب وتحقيق انتصار على هذا الشعب الذي يفترض أنهم أن يحمونه، إنه الشعب الذي يتقاضى هذا العسكري أجراً من أجل حمايته، يستلم رشوة أو سيارة أو منزلاً في مساكن الضباط، أو حتى يجمع بين ذلك كله من أجل أن يحمي هذا الشعب المسكين.. وكما يقول المثل: حاميتها حراميتها، ولكن في حالتنا كان حاميتها حراميتها وقاتلها والباطش بشعبها.

ودارت بيننا مناقشات قليلة التزمت فيها بالصمت، وازداد هو وقاحة ولصقاً للتهم حتى لم أسمع بها، ثم ذهب إلى شأنه بعدها، وذهب محقق الحاجب ليقضي شيئاً للمحقق.

لم أفهم طباعهم ولا سلوكهم، إنهم يحاولون جاهدين استفزازي باتهامي بأشياء لم أفعلها، ثم ينهالون بالعقاب بعدها، ثم ينتظر جوابي ليلفك لي تهمة أخرى.. تراها أية غابة هذه!، أنا بريء ولكنني متهم و محبوس ويحقق معي في أشياء لم أرتكبها، ثم ينزل العقاب عليّ بينما لا يزال التحقيق قائماً!

وبعد قُرابة الساعة والنصف من الوقوف في الممر خارج غرفة المحقق أصاب الخدر رجلي اليمنى فجلست قليلاً، وعندها نبهني أحد الأشخاص في الفرع، وهو شخص متهم مثلي كان يحقق معه المحقق في الغرفة المجاورة، قال لي لا تجلس؛ فإن ذلك يستفزهم أكثر، فقد طلب منك المحقق أن تنتظر بالخارج، لذلك انتظر وأنت واقف وقفة عسكرية. ويبدو أن ذلك الشاب كان على علم بهم أكثر مني، وقد تبينت لاحقاً أنه كان مسجوناً وخرج، ثم طلبوه للتحقيق مرة أخرى.

طلبني المحقق بعدها بقليل، وقال لي رح أسألك سؤال وبدي تجاوب عليه مثل ما جاوبت عليه بالفيس بوك (مضحك أن ينطقوا كلمة facebook فس فووك)، ومضحك أكثر أن شخصاً يفترض به أن يكون حاملاً لشهادة جامعية غير قادر على نطقها.

وقد كان السؤال هو: ما نوع الدستور في حكومة الغابة؟ وأجبت: لا علم لدي، لكن أعلم أن في حكومة الغابة البقاء للأقوى. فقال لي: لا بتعرف شو مجاوب وجوابك عندي، ورددت بعدها: سيادة المحقق أجبتك على السؤال الذي قبله، والذي كان عن الحكومة، أنا متأكد أنني لو كنت أعرف الإجابة لأجبت.

لا أنكر أنني أعلم أنّ الغابة هنا مقصود بها دولة الأسد، والسؤال ليس أكثر من سؤال ساخر، والبعث على السخرية في الأمر أن المحقق الذي استدعاني من غير إذن نيابيّ وهذا ضد القانون، وطلبني للتحقيق في حرم الجامعة والتي يضمن قانونها عدم تواجد أي عنصر أمنيّ، وهذا أيضا ضد القانون؛ يحاول أن يحقق معي في شيء ليس لديه دليل عليه، فكأن هذا المحقق قد ضرب بالقانون عرض الحائط مرتين؛ فهو يحاول أن ينتزع مني بطريقة غير قانونية اعترافات مفادها أنني لا أحترم القانون!. وهو تناقض مضحك لأبعد الحدود.

وكان جوابي على السؤال فيما بعد هو: «عدالتو عند بيت خالتو». وبيت الخالة مصطلح سوريّ يرمز إلى سجون أفرع الأمن، والجواب هنا يوحي بأنه لا توجد عدالة في دولة الغابة، وإنما يوجد فقط بيت خالة وهو الذي يلصق التهمة بالشخص، ثم يعتقله، ثم يدينه، ثم يحكم عليه وهو لا زال تحت التحقيق!

وعندما أخبرني المحقق بجوابي أنكرت أنه كان عن قصد، وقلت له بأنني اشتريت هاتفاً يعمل باللمس، وقد أكون أجبت على هذا السؤال بالغلط وأنا أتصفح، وأن هذا الإشكال شائع جداً عند من يمتلك هاتفاً يعمل باللمس فلم يصدقني، فأعطيته هاتفي ليتأكد، ولكونه لا يعلم

كيف يعمل الهاتف فقد هزّ رأسه موافقاً لجوابي؛ لم يرد إحراج نفسه أمامي، فمن أنا مقارنة به لأعلم أكثر منه، فالأمر بالنسبة إليه بديهي، هو يعلم أكثر ما أعلم لكونه ضابط سلك، وأنا مواطن دونّ وضعٍ حقيرٍ لا أعلم شيئاً.

وقد طلب مني الخروج والانتظار بالخارج مرة أخرى، فانتظرت قرابة نصف الساعة، ثم بعدها طلبني مجدداً وقال لي:

هلق يا ياسر رح نوقعك على تعهد إنو ما تعيدها بس هي آخر مرة. لم أفهم ماذا قصد بآخر مرة، فسألته آخر مرة ماذا سيادة المحقق؟ وعندها نظر الحاجب إليّ وقال لما سيدك يقول آخر مرة بترد أمرك سيدي، ثم نظر إلى المحقق وقال له:

سيدي شو رأيك نزلو لتحت وعيد تربيته من أول وجديد.

تجاهلت ما قال لأنني لا أريد شيئاً الآن سوى حريتي، لم أدخل زنزانة قط، ولكن هذه الساعات الثلاث التي قضيتها في التحقيق بدت لي وكأنها دامت أكثر من ثلاثة أشهر.

وقال المحقق للحاجب: خدو لبري وسلموا أغراضوع الباب، الله معك ياسر ودير بالك على دراستك.

الله معك ودير بالك على دراستك، كان الأمر أبسط مما تصورت، يبدو أنهم كانوا صادقين، وأنا قد ظلمتهم عندما ظننت أنها غابة، وأنهم حيوانات مفترسة لدى السلطة، يبدو أنهم أشخاص محترمون، وربما المعضلة فعلياً ليست بهم ولكن بحاجبيهم.. كنت مغفلاً عندما ظننت ذلك.

قال لي الحاجب الحقني وسار أمامي، لا زلت أذكر مكتبه، أول مكتب في الزاوية اليمنى في الطابق الأول فني (الطابق الثاني)، تدخل الباب وتذهب لليمين وتصعد الدرج، تأخذ الجهة اليمنى من الباب فور صعود الدرج، ثم تتجه إلى الجهة اليمنى، تمشي إلى آخر الممر ثم أول مكتب على الجهة اليمنى.

بعد أن خرجنا من الباب، أخذني لباب آخر لم أره من قبل، فُتح بابٌ كبير بعرض أربعة أمتار، ثم دخلت، قال الحاجب للشخص الذي فتح: استلم هالعينة، بس دير بالك عليه عندو واسطة.

نظرت إلى اليسار وإذا بالحاجب ينهار عليّ بالضرب على رأسي بكل ما أوتي من قوة وبأطرافه الأربعة!، أصبت بالذهول لأول وهلة، ماذا يحدث، ما الذي تغير، كيف تحول شخص من تلك الحالة إلى كلب مسعور يزيده الضرب تعطشاً للضرب أكثر؟! كان يضرب ويصيح:

لكان أنا بطلع وبنزل دراج مشانك يا عر** والله لفرجيك، ثم ينهال أكثر بالضرب والكفر.

ودخل معي في الوقت نفسه عسكريّ ملطخ بالدماء، أنزلوه من طبون السيارة، ثم شحطوه من شعر رأسه إلى الداخل، وقال الذي جلبه بأنه حاول أن يقتل رفاقه بقنبلة يدوية فتبادل على ضربه وتعذيبه أربعة عناصر، كان العسكريّ المسكين يتلعثم بالكلام ويُتأتى، وعندما علموا بذلك صاروا يسألونه أكثر، وعندما يحاول الإجابة ويتلعثم يتهمونهم بأنه يرفض الإجابة، ثم يزدون من الضرب عليه، وطوال ما يزيد عن ربع الساعة لم يزد قوله عن أن القنبلة وقعت منه لا أكثر، وقد كانت مؤمنة، مما يعني أنه لم يكن يحاول قتلهم. ومما يشعر بالاشمئزاز منهم أنه كلما تلعثم أكثر يزيد ضربهم وتعذيبهم له، ثم اتهموه بأنه عار على البدلة وعلى السلك.. كيف عرفوا ذلك؟ لم يحقق معه أحد بعد، ولم يعترف هو بأيّ شيء!

مسكين هذا الشاب، تعرض للتنمر طول حياته بسبب تلعثمه، والآن هو يعذب بعاهته أيضاً.

إنها فعلاً مزرعة، هذا البلد مزرعة.

أما فيما يخصني، فبعد قرابة ربع الساعة من الضرب، عدت ما يزيد عن الخمسين ما بين ضربة بوكس ورفسة وشلوت (الشلوت مصطلح يستخدمه العسكر للدلالة على الضرب بالرجل من الجهة الأمامية)، والرفس هو الضرب بالرجل من الجهة الخلفية. كان ضرب العناصر مركزاً على خاصرتي اليمنى واليسرى، وأعضائي التناسلية، وضرب اليد مركزاً على العين أو أسفل الجمجمة.

ثم توقف عن ضربي، وناداني بعدها مسؤول الزنانة، وقال: عارياً مع حركتين أمان، لم أفهم ما قال، فما زلت أترنح يمينا ويساراً نتيجة لإصابتي بالدوار لكثرة الضرب الذي تلقيته من حاجب المحقق والحاجب الذي فتح باب الزنانة. وقد نظر إليّ مسؤول الزنانة مرة أخرى، وقال بلهجته الساحلية: هنت مقلك عارياً مع حركتين أمان، فأجبتته بأني لا أعلم معنى ذلك، فقال اشلح أو اعيك، ثم بعدها حركتين أمان.. حركتين أمان، لا أعلم معنى ذلك، نظر إليّ مجدداً وقال، أنت بدك تجيب لنا وجع راس من أولها، فقال له حاجب المحقق بأني طويل لسان ووقع، وأخبرني بعدها بأن معنى حركتي الأمان هو أن أقف وأجلس مرتين، ففعلت ذلك

في البداية تعنتُ ورفضت فقاموا بضربني أكثر، كيف اخلع ثيابي وأنا شخص لم اتعري أما أحد في حياتي، الموضوع ليس بالسهل ارفض ذلك

زاد ذلك من بطشهم وصاروا يصيحون بأني ارفض وأمرهم العسكرية وبأن ذلك سيزيد من التهم الموجهة إليّ، أجبته بأني أرفض التعري كاملاً فقاموا بضربني أكثر إلى أن تعبوا، وهنا قال خليك بالشورت وانزل حركتين أمان وهو ما استحسنت فعله، وفعلت، فذلك كان أهون عليّ من التعري كاملاً، ثم أخذوا أشياءي ورافقني عنصر جديد، ثم أخذني إلى باب آخر؛ وهو أشبه بالسرداب خلفه يوجد ست زرنانات؛ ثلاث زرنانات في كل جهة، ثم إلى اليسار منه سرداب آخر ينتهي بباب، مشينا إلى نهاية السرداب، ثم فتح الباب وطلب أن أرافقه، كان هنالك على ما يبدو من منظره أنه مطبخ مفتوح السقف محاط بالشبك، ولكن كان يوجد به دماء، وأي مطبخ من الممكن أن يوجد به دماء، ولكن على الأرجح لم يكن هذا مطبخاً، بدأ لي كأنه مسالخ حيوانات، وباب هذا المسلخ يطل على الجهة الجنوبية الشرقية، ثم هناك باب آخر على الجهة اليمنى من آخر المطبخ يطل على سرداب آخر، وطلب مني أن أواصل المسير.. نزلنا بضع درجات ثم أكملنا المسير إلى أن انتهى ممر السرداب، وعلى يمين الممر بدا وكأن هنالك حمامات مهجورة، وإلى اليسار كان يوجد سرداب آخر أطول من الذي قبله، وطوال هذه الفترة كان الحاجب يأمرني ويؤكد عليّ أن أبقى رأسي مطأطئاً إلى الأرض، وأنه إذا المحني أنظر إلى شيء فسيقوم بتصفيتي.

ووصلنا إلى نهاية السرداب، وفي نهاية السرداب كان يتواجد شخص يجلس على كرسيّ، فقال لي: هنت تعال هون، ثم أمرني وقال: تشطح ورجلك لفوق، قلت له بأني لا أفهم معنى ذلك، كان يحمل كبلًا رباعيًا، وهو كبل من النحاس مغطّى بالمطاط، ملفوف على أربع طبقات. أعاد الرجل ما قال، تشطح واعمل ما عم قلك ولك، حيوان ولك، قرد ولك..

لم أفهم سبب عصبيته، هو يطلب مني أن أقوم بشيء لا أفهمه، وأنا أجبته باحترام أنني لا أفهم معنى ذلك، وأنا متأكد أن ذكر الحيوانات بعدها لا يفيد أيضًا، فكيف أنفذ ما لا أفهمه؟!

وأمسك برأسي وصار يضربه بالحائط، ويصرخ: لما بقلك تشطح بتشطح. وحينها رأيت شخصًا ملقى على الأرض وسمعت الحاجب بعدها ينادي: استلمت مساعد؟ فرد المساعد: استلمنا.

وأخذ المساعد يضربني بعدها إلى أن وقعت على الأرض من كثرة الضرب، فصرخ المساعد بعدها: شفت إنك بتعرف وعم تتفهمني والله لرييك من أول وجديد!

وعجيب أمر هؤلاء العناصر، فكل منهم يسعى جاهدًا لإعادة تربيتي، لم أعلم بأني احتجت يومًا إلى تربية جديدة حتى تكلف السلطة

نفسها بأداء هذه المهمة، وأن تنتخب لي ثلاثة مساعدين ليقوموا بذلك،
قد غمرتني السلطة بكرمها..

تسطحت على بطني، وانهل المساعد بالضرب أكثر وزادت القوة،
تذكرت قوانين الفيزياء التي طالما أحببتها؛

وأن العزم هو ناتج ضرب القوة بالذراع، وأنه كلما زادت القوة أو
زادت الذراع تضاعف العزم.

مضحك أن يكون هذا المساعد ينفذ الفيزياء العملية؛ قد علم بأن
الضربة تكون أقوى إذا كان واقفاً وهو يضرب شخصاً ملقى على
الأرض!

وعجيب شأني أنا أيضاً؛ فأين أنا من حقيقة ما يحصل لي الآن،
فبينما أهان وأضرب بالعصي والأسلاك، إذا بتفكيري مشغول بقوانين
الفيزياء!

وبعدها بدأ السجان الأسئلة بلهجة ساحلية أيضاً:

قر واعترف شو علاقتك بأحداس الـ 82

وحينها نظرت حولي، ماذا؟ هل يسألني أنا؟!

فأعاد الكلام مرة أخرى:

قرد ولاك شو علاقتك بأحداس الـ 82 ولاك؟

وكان جوابي وأنا ملقي على الأرض والعصي تنهار عليّ:

أنا مواليد الـ 91!

فزاد من الضرب وصرخ:

من أولها بدك تنكر علاقتك ولاك، ولك نحن منعريف كلشي عنك
ولك.

لم أعلم ماذا أفعل؛ فكل ضربة كانت أقوى من التي قبلها، وصرت
أعد العصي التي تنهار عليّ، علّما تشغلني بالتفكير في شيء آخر، عدت
حتى العشرين ثم صرخ السجنان وقال: قوم انقلع زنزانك..

لم أستطع الوقوف على قدمي لكثرة السياط التي انهالت عليها، فجاء
أحد المساجين الذين يعملون في السخرة وساعدني قليلاً على الوقوف،
وهمس لي بأنه سيصرخ في وجهي، وأنه سيفعل ذلك كيلا يشك السجنان
فيه، فhezزت له رأسي.

ثم قام بالصراخ في وجهي:

قم ولاك، رجلك مكسرة، لسي هيك وما شفت شي، هي حفلة
الاستقبال بس، بكرًا بالتحقيق لتنفرم فرم!

أي تحقيق تتكلم عنه؟ لقد تم التحقيق معي قبل قليل، وقلبها عند المساعد في الطابق الثاني، وعلمت لاحقاً بأن أي تحقيق خارج الزنزانة لا علاقة له بالتحقيق داخلها.

التفت يميناً ويساراً في غرفة التعذيب، حاولت وصف المكان الذي أنا فيه، إنه مكان تحت الأرض لا تدخله الشمس من أي مكان، تربطه سراديب مظلمة من كل جهة، فيها باب واحد يقود إلى سرداب آخر ثم سرداب ثم باب. هذا المكان أشبه بالدياس.

أشهر الدياميس تاريخياً كان دياس الحجاج بن يوسف، وكان يطلق عليه دياس لشدة ظلمته. وأشهر الدياميس في العصور الوسطى هو برج لندن في إنجلترا وهو مشهور بكونه سجنًا للمحتجزين السياسيين. وها هو التاريخ يعيد نفسه من جديد، فكلما اشتد السلطان ظلماً لجأ إلى أبسط الطرق تعذيباً وتنكيلاً. غرف تحت الأرض لا يدخلها النور يبدو السجن بالنسبة إليها كالجنة، وهذا المكان لا يقارن بالسجن؛ فالسجن تدخله الشمس وتعقمه وفي منتصفه باحة يرى من خلالها المساجين الشمس وتشبع جلودهم منها. وقد وصف ابن الجوزي في - المنتظم - جانباً من فظاعة دياس الحجاج؛ فيقول: إنه «حائط محوط، ليس فيه مآل (مأوى) ولا ظلّ..، فإذا آوى المساجين إلى الجدران يستظلون بها

رمتهم الحرسُ بالحجارة، وهنا في هذا الدياس يوجد من نظيره ومما على شاكلته؛ جدران مغلقة وحراس غلاظ يبطشون بالمساجين يمينا ويسارا.

وبعد قليل من التفكير عدت لواقعي، وهنا أمر السجنان أحد الشاويشية أن يرميني في المهجع ج3.

يا لسخرية الحالة، ج3، من بين كل الحروف قدري أن أرمى في الزنانة (ج)، لقد كان أول حرف نطقت به، يعلم بذلك كل معارفي أهلي وأقاربي، حتى أن الجميع كان يناديني بذلك «جيم»، وقد صار لقباً لي حتى كرهته، واليوم مصيري الزنانة ج3، وهنا تبدأ الحكاية..

* * *

مُهْجَع ج 3

باب المهجع أسود اللون بارتفاع مترين وعرض متر تقريباً، وهو يفتح بـ «سقاط» أو قفل من المدرسة العتيقة يشبه الأقفال التي كان يصنعها الحدادون قديماً لمزارع المواشي، وللأمانة المكان نفسه لا يصلح لأن يكون زريبة للمواشي، فالروائح العفنة ورائحة الدماء ومنظر المطبخ الذي بدأ شبيهاً بمسلخ حيوانات كلها توحى بأن المكان يفتقر حتى ليكون زريبة مواشي. وفي خضم تفكيرى وذهولي من المكان الذي أنا فيه وافتقاره لأي مقدّر من مقدرات الإنسانية والحضارة صاح الشاب الذي قادني إلى الزنزانة قائلاً: أسعوا هيك، سجين جديد..

لفت نظري منه هذا السلوك، ولم أفهم الباعث له، ولماذا ينادي هكذا في السجن، وما هو وجه احتياجه إلى مثل هذا التنبيه، وفكرتني عن السجن أنه غرفة أربعة أمتار بأربعة أمتار، فيها زيلان أو أربعة، ويعتمد ذلك على عدد الأسرّة فيها، هكذا كنت أرى في المسلسلات والأفلام، فما الذي يجعل الشاويش يصيح على باب السجن ويطلب من المساجين الإفراح؟!

ولم تدم أفكاري طويلاً؛ فبعد قُرابة العشرين ثانية فُتِحَ باب السجن، وإذا الوجوه الشاحبة العابسة فاقدة الأمل كلها تنظر إليّ، لم أكد أصدق ما هذا الذي أرى؛ لقد كان ما يزيد على خمسين شخصاً في غرفة لا يزيد بعدها عن أربعة أمتار في ثلاثة أمتار، وجزء من مساحة الغرفة حمام، فكيف يمكن تصور مثل هذا!

وقطع دهبولي رفسة من السجناء جاءتني من الخلف وصاح بعدها، هاد أوتيلك رح تعيش فيه لحتى نقول غير هيك وإن شاء الله ابتشوف الضو بعدا.

وبعدها قادني رجل ذو ذقن طويلة وشعر مخلوق على الصفر، ثم أنه قال لي: جنب الحمام مكانك، وقف هنيك ليحيك دور تقعد..
أصحيحُ ما يقول ذلك الرجل، أوحقُ ما قد سمعت أذناي؛ أنتظر دوراً لأقعد؟!

يا لها من حالة مفزعة أنا فيها الآن، فأين ما قد كنت فيه، وإلى أي حال قد صرت؛ كنت في بيتنا أملك غرفة وحدي، لي سريري وطاولتي وكُرسيي وجهاز الحاسوب المحمول الخاص بي، والآن مكاني في غرفة أصغر من غرفتي أشاركها مع ما يزيد على السبعين شخصاً، ومكاني هو باب الحمام حيث الروائح تملأ المكان، وكلما أراد شخص الدخول

إلى الحمام شدني إلى جهة الجدار حتى يستطيع فتح الباب، وكلما أراد الخروج، شدني إلى الجهة الأخرى كي يستطيع الخروج.

وطاردتني أسئلة كثيرة لا أستطيع الإجابة عنها، وتذكرت الحلم الذي سبق أن رأيته؛ والذي يقتل الأفاعي، وجدتي تصلي وتدعولي، وأنا واقف بموضعي مذهولاً لا أستطيع الحراك، أنظر يمينا وشمالاً. وبعدها ببضع دقائق وعندما هدأت الزلزلة، لاحظت أن أصوات التعذيب اختفت، وأخبرني بعدها أحد المعتقلين معي أن وقت التحقيق انتهى اليوم وانصرف المحققون إلى مكاتبهم.

وقد تجمهر الناس حولي، وتوالت أسئلتهم عليّ تباعاً:

هل هنالك أية إشاعة لعفو عام؟

هل النظام ما زال قوياً؟

ما أخبار مؤتمرات المعارضة،

وهل صحيح أن هنالك مبعوثاً عربياً في المنطقة ليؤمن انتقال السلطة

من هذه العصابة إلى الشعب؟

ما أخبار الانشقاقات في جيش النظام؟

أين أصبح الجيش الحرّ،

وهل خرجت درعا عن سيطرة النظام؟

هل سيعفو النظام عن العساكر المعتقلين؟

فنهزت الجميع وقلت اتركوني بحالي، ما بعرف شي، ليس دفاعاً عن نفسي، ولكن لم يمض ساعتين منذ أن رأيت ملفاً من عشرات الصفحات عني، فكيف أستطيع أن أثق بهؤلاء الناس الذين لا أعرفهم ولا أعرف أسماءهم حتى، كيف أستطيع أن أثق بأي أحد بعد ما حدث اليوم؟

وناداني بعدها شيخ ملأ الشعر الأبيض رأسه ولحيته، فقال لي بلهجته الشامية: يا ابني كل هالناس يلي هون متلك، ما إلها أي ذنب يلي انكمش بمظاهرة، ويلي اخدوه من البيت، ويلي جاروا كرهانو راح ضاربو تقرير، ويلي كان حابب بنت من طائفتون راح حدا من هديك الطائفة بلغ عنو انو إرهابي، أما العساكر يا ابني، يا إما ضابطو بلغ عنو أو تخانق مع رفيقو راح قال للضابط انو بدو ينشق، يا إما مارضي يقوص ع الناس، يا إما لانو ابن درعا وحمص وحماه. رح تسمع من هالناس، ما تخلي الأوباش يلي برا يكسروك، لان هنن هي غايتون، بدهن يا إنا نرجع نخاف منهم، وما نهتم غير بأكلنا وشربنا ونبوس أيديهم كل يوم، وكلما اغتال حدا نروح نهتف بالروح بالدم. وتنهذ قليلاً ثم قال: هالباب يا ابني ما بسكر لحدا، آخرتو يفتح، يا بيفتح لك وأنت عايش وبترجع

لعند أهلك، يا إما بتموت هون شهيد وبتروح لعند ربك، وربنا ما بيضيعلك أجر، اصبر وוכל أمرك لله..

وقد أعاد كلام هذا الشيخ الطمأنينة إلى قلبي، ولم أكن يوماً بالشكاك، فأنا لا أشك بأحد حتى يثبت لي سوء نيته، كل شخص عندي صادق حتى يكذب، كل شخص أمين حتى يسرق، والأهم من ذلك: كل شخص بريء حتى يثبت العكس، وهو قانون نحتاجه بشدة في هذه البلدة الظالمة، حيث كل شخص متهم وعميل وخائن وإخواني وإرهابي طالما هو يعيش على هذه الرقعة الجغرافية، وليست الأزمة فقط في حق من يعيش عليها أو يحمل الهوية السورية؛ بل إنها ربما تطل من يكون خارج البلد، فيكتب فيه أحد تقريراً يرسله إلى السفارة، والتي بدورها ترسلها إلى المراكز الأمنية في سوريا، فيعمم اسم صاحبها على الحدود، ويتم اعتقاله عندما تطلأ قدمه أرض الوطن.

وبعد كلام الشيخ هدأت قليلاً، ورجعت إلى زاويتي بجانب المرحاض؛ لكون أحد الأشخاص ذكر أني أستخدم مكانه.

ومرت الساعات والأيام، وكأن الوقت لا يمضي، فكرت في الصلاة، ولكن تذكرت أن الصلاة في السجن جريمة قد تصل عقوبتها إلى التعذيب حتى الموت، فصرت أراقب الوضع حولي، واستمع إلى ما يقوله المساجين معي؛ لعلّي أجد هواية جديدة أقضي بها ههنا وقتي..

لا شيء في السجن يمكنني أن أستغله كي أمضي وقتي به، وبعد مرور بضعة أيام، أو ما تبين لاحقاً أنها كانت بضعة أيام - بسبب فقدان وسائل معرفة الوقت - سألني أحد المساجين معنا:

كم لبثت؟

فهزرت رأسي؛ لا أعلم، فلعلها خمسة أيام أو ما يقاربها.

ثم إنه سألني، كم وجبة أكلت؟

فهزرت رأسي، وجبة؟ وهل يقدمون الطعام هنا؟ لم أر الطعام حتى الآن.

ورد ضاحكاً: معناها أنت جيت بعد الغدا، ولسه ما صار وقت العشا، تعيش وإن شاء الله ما بتاكل غيرها (مصطلح سوريّ بمعنى أنه عسى أن لا تعاد الذكرى)، ما صر لك هون كم ساعة!

وقد أحزنني كلامه، وأسأل دمعني، كل هذا الوقت لم يكن إلا «كم ساعة» فكيف لي أن أمضي الوقت هنا إذا؟!

وعدت إلى الشيخ وتحدثت معه مرة أخرى، عن السجن:

كيف يعيش الناس هنا؟

كيف الوضع؟

كيف الناس بتطلع من السجن؟

كيف الناس بتفوت؟

والأهم شو الأمل هون..

فرد مبتسماً، وقال بلهجته الشامية:

يا ابني الناس هون مظالم، والحاكم أظلم، يلي بقلك هوي منيح
ويلي حواليه عاطلين، هاد عم يضحك ع حالو، رح تشوف هون كيف
الأصغر برتبة بيضرب تحية للأعلى منو، وكيف الضابط الأعلى برتبة
دايماً يمسح الأرض ييلي تحت منو برتبة، كلون هيك، وتعلموا من
بعض، لهيك بتشوف هدول العناصر يلي ما عندهم رتب بيتفششو فينا،
لأن نحن الأقل رتبة بهالبلد وهاد وضعنا.

الوضع هون، كل جمعة بعد الصلاة بيعتقلوا هالناس ويجيبوهم ع
الفرع، بيضلوا بيعتقلوا ليعبوا الباص، إذا ما عبوه متظاهرين، بعبوه
ناس من الشارع وبحطولون ثم على كيفهم، والمحقق يلي بيعتبروه
شاطر هوي المحقق يلي بيتفاخر أنو بخلي المتهم يعترف بشغلات عاملها
ومو عاملها، وفي من المحققين يلي بيتحدى رفيقو أنو يخلي المعتقل يعترف
بشغلات مو عاملها. هون إنت وحظك مع أي محقق بتيجي هاد وضع
التحقيق. أما قديش بتقعد بالسجن أو كيف الناس بتطلع:

يلي معو واسطة بيقعد 7 أيام. ظهرت هنا ابتسامة خفيفة على وجهي، ولكن نبرة الشيخ زادت حدة، وكأنه طلب مني أن أنتبه إلى ردة فعلي، لم يُرد من سيتكلم عنهم لاحقاً أن يلاحظوا أن معي واسطة، قال بعدها وإذا ما معون واسطة هون بيختلف الأمر، المدني بيقعد 45 يوم وبعدها يبروح على سجن عدرا ويمكن يتحول على المحكمة بعدها، أما العسكري 60 يوم وبعدها بيتحول لصيدنايا، وهدول يلي بروحو على صيدنايا، معاد يشوفو الضو، الله يعينهم ويصبر أهاليهون.

المعلومات هذه كانت معروفة للجميع في السجن، فبعد أن يمضي على الشخص خمسة وأربعون يوماً أو ما يزيد قليلاً - إن ظلّ على قيد الحياة - يخرج من السجن، أمّا بخصوص العساكر؛ فبعد أن يمضي أحدهم ستين يوماً، فإنه إما أن يتم تحويله إلى فرع أمنيّ آخر، أو إلى المحكمة العسكرية، ثم الإعدام الميدانيّ، أو التحويل إلى سجن صيدنايا. أما لماذا هي خمسة وأربعون يوماً للمدنيّ، وستون يوماً للعسكريّ؟؛ فقد كان ما ينص عليه الدستور هو أنه يحق لوزارة الداخلية الاحتفاظ بالمدنيين لمدة خمسة وأربعين يوماً على ذمة التحقيق، ولكن لم ينص الدستور على التعذيب؛ لذلك كانت حيلتهم أنه بعد خمسة وأربعين يوماً - إن عاش المعتقل - يحول إلى سجن عدرا إذا كان بريئاً من أي تهمة

ورفض الاعتراف بالتهمة التي اتهمه بها السجنان، أمّا إن اعترف فإنهم سوف يقومون بتحويل المعتقل إلى فرع أمنيّ آخر؛ حتى يعيدوا الكرة، ويبدأ عد خمسة وأربعين يومًا من الصفر. ولم يكن المرسوم ينص على ذلك، ولكن كان ذلك تبريرهم، فالقانون السوريّ نفسه يدين التعذيب قبل الاعتراف، وقد شهدنا ما هو أسوأ من ذلك كما سأذكر لاحقاً.

مصدر الأخبار في السجن هو السجنان، حيث يخبر السجنان المناوب جماعة السخرة بما يريد، فكان جماعة السخرة أحياناً يخبرون المساجين بها. وكمية الأخبار المسربة كانت تُعتمد على حسب مزاج السجنان؛ فإذا كان يشعر بالملل ويريد التحدث؛ فإنه يزيد كمية الأخبار، والعكس صحيح. وكان جماعة السخرة هم المصدر الرئيس والوحيد للأخبار لدينا، وكان يصادف أحيانا أن يكون هذا الشخص من المتهمين بالتظاهر، وهنا تكمن فرحتنا؛ لأنّ واحداً منّا سيخرج للسخرة، مما يعني أنه سينقل لنا أخباراً أكثر، فهؤلاء كانوا يمثلون الجزيرة والعربية والـ BBC لدينا، فهم معلقو الرياضة ومذيعو الأخبار، هم حفيظ دراجي وعصام الشوالي وفيصل القاسم وغادة عويس.

وأما الناس في هذا السجن «فرع 227» أغلبهم من منطقة نهر عيشة والدحاديل والقدم، والقليل منهم من الكسوة، مما يؤكد أن الفروع

الأمنية قد قسموا أحياء دمشق بينهم، وكل منهم مسؤول عن منطقة، وعلى سبيل المثال فالفرع 227 هو فرع أمن عسكري، مما يعني أنه للعسكر فقط، ولكن في دولة الغابة التي نعيش فيها فالعسكري يعني النخبة، ويعني ذلك أن يدهم تطال الكل، فسلطة ابن السلك تطال المدنيين والعسكريين.

وجاء العشاء وكان عبارة عن حبة من البطاطا المسلوقة مع رغيف من الخبز. وللصراحة فإن حبة البطاطا تبدو كما لو كانت نيئة، ويحتاج تقشيرها إلى نصف ساعة لكونها لم تطهَ جيّداً. فكنت أتضور جوعاً، وعلى الرغم من سوء الوجبة فإنها كانت بالنسبة لي شيئاً مهماً أحاجه؛ فقليل من الطعام بعد يوم طويل من القذف والشتم والضرب والرفس لا شكّ شيء ضروريّ. لكنني وبعد أن تناولت القليل منها، لم أستطع إنهاءها؛ لقد كانت حجراً مسلوقاً لا حبةً من البطاطا، لم أكن أعلم أن البطاطا قد تكون بهذا السوء، وبهذه القساوة. وقد قال لي الشخص الذي بجانبني إنه لا يمانع في أكلها، إن لم أكن أنا أريدها، فأعطيته إياها، فقد كانت أقسى عليّ من أن أحتفظ بها.

وأحسست بالعطش الشديد، وسألت عن كيفية الشرب في المجمع، وتبين لي أن صنوبر الحمام «التواليات» هو المورد الوحيد لماء الشرب! لم

استطع أن أشرب في البداية، وكيف لي أن أشرب من صنوبر الحمام، فأية قذارة هذه! وقد كابرت لعدة ساعات إلى أن عانيت من العطش الشديد، فعندها شربت من ذلك الصنوبر، وبعدها أصبح الأمر عاديًا، حتى أنني صرت أواسي المساجين الجدد الذين يرفضون الشرب من ذلك الصنوبر في البداية.

ومضى اليوم الأول ولم أحظ فيه بأي قسط من النوم، وجاء فطور اليوم الثاني، ومحتواه:

رغيف خبز، ومكعب صغير من حلاوة الطحينة أصغر من حجم أصبع السبابة، سبع حبات من الزيتون الأخضر شديد المرارة، مرّ كالعلقم، حتى أنني قلت يومًا:

ما شاء الله هالزيتونات تازة من الشجرة لرغيف الخبز.

كانت جملة عفوية قلتها، ولكنها كانت كافية ليضحك عليها جميع من في المهجع معنا، ثم أصبحت جملة متعارفة نسمعها كل فطور: زيتونات تازة من الشجرة لرغيف الخبز.

وبعد عدة أيام فُتح باب المهجع قُرابة الساعة التاسعة صباحًا ونادوا باسمي مع أسماء أحد عشرة عسكريًا، تبين لاحقًا أننا من دخلنا السجن في الفترة الأخيرة ثم قادنا الشاويش إلى المطبخ، ثم خارجًا إلى منطقة

الشبك وهنالك كان يجلس رجل قصير نحيل البنيان يلبس بنطالاً أسود من القماش ومعطفاً بني اللون من الجلد، ويحمل قضيباً أخضر اللون يشبه مواسير الصرف الصحي، يشبه منظره ما تصوره الأفلام والمسلسلات السورية عن عناصر الأمن المتخفين بالضبط، وتبين لاحقاً أنه أحد المساعدين في الفرع.

وبعد أن دخلنا مع المعتقلين الجدد من جميع الزنانات - وكان عدداً يقارب الخمسة والأربعين - بدأ المساعد بالصراخ علينا:

حيوانات ولك، عملاء ولك، خونة أنت وياه، عملاء كونداليزا رايس وإسرائيل، إنتو بدمكم تربية من أول وجديد وأنا بدّي ربيكون، ثم بدأ بالهجوم عشوائياً إن حاول أحد صد الضربة بيده نزل عليه العذاب، وإن حاول كتمها نزل عليه العذاب أيضاً!

لم أعلم سبب اختياره للكونداليزا رايس بالتحديد، ولماذا لم يختاروا أن نكون عملاء لجورج بوش أو لتوني بلير أو الملكة إليزابيث؟!، وبحث عن الإجابة لاحقاً لأتبين ببساطة أن الشعوب العربية تنظر دائماً إلى الغرب على أنهم شعوب متقدمة ومتحضرة، وأنهم عرق أسمى، وقد تطورت الأمور إلى أكثر من ذلك حتى أصبحوا يؤمنون بذلك باللا شعور الخاص بهم، فكانت الكونداليزا رايس الشخص الذي نال أكبر قسط من

الحقد لكونها لا تنتمي إلى عرق يظن أعوان الأنظمة المتخلفة أنه أرقى من العرق الذي ينتمون إليه، إنه باختصار مظهر من مظاهر العنصرية في النظام نفسه، أو ما يعرف بال «systematic racism»، وقد تغلغت في النظام حتى صارت من بديهيات اللاشعور عندهم.

كان قد أخبرني الجميع أنني إذا تعرضت للتعذيب أو الضرب، فعليّ بالصراخ من الألم مهما استطعت؛ لأن ذلك يعطيهم نشوة خاصة تجعلهم يحسون بالقوة، وبأن ضربهم مبرّح، وبأنهم قويو البنية شديداً بالبأس، والعكس صحيح؛ فإن حاول الشخص كتم الألم، كان ذلك يغضبهم؛ لكونه كان يعطيهم شعوراً بالضعف، فيزيدون من العذاب أضعافاً مضاعفة.

وبدأ المساعد القصير النحيل بالضرب عشوائياً، يميناً ويساراً، والجميع يصرخ ويتألم، إلا شخصاً واحداً رفض الصراخ، وأحس به المساعد فصار يضربه في كل مكان من جسمه، فأبى ذلك الشخص الصراخ، وظلّ المساعد يضربه حتى تعب ثم قال:

والله لربيك من أول وجديد، استنى لخلص شغلي بالأول!

عدنا إلى موضوع التربية، ولا زلت عاجزاً عن فهم قصتهم مع موضوع التربية هذا، ولماذا تربيتنا وإعادة تأهيلنا هي مهمة عندهم إلى هذه الدرجة!

وأحضر المساعد لوحًا أخضر بمساحة 20×20 سم ومعه قلم طباشور وكميرا، ثم طلب من الجميع أن يصطفوا في طابور حتى يصور كلاً منا على حدة،

يكتب المساعد اسم الشخص على اللوح، ثم يطلب منه أن يحمله، ثم يقوم مصور بأخذ صورة لكل شخص على هذه الهيئة.

وقد كان خط المساعد أسوء خط رأيته، وبالكاد يستطيع أي شخص أن يقرأه، وقد علم بذلك بعد أن رأى الجميع ينظرون وكأنهم لا يستطيعون قراءة أساميهم التي كتبها، وصرخ بعدها:

مين هون جامعي ولك حيوان منك إلو؟

وقد ظننته يحاول فرز المدنيين عن العسكريين في تلك اللحظة فتقدمت للأمام، فصرخ بوجهي قائلاً:

بتكتب اسم يلي واقف هون بعد ما ينقلك ياه تيتصور وبعدين بتمحي وبتكتب اسم يلي بعدو، قرد ما تفهم عليّ.

وسألني بعدها، أشو تهتمتك كرا إنت؟

وتذكرت مما حصل لي البارحة أن أيّ جواب أعطيته سيفتح باباً لأسئلة أخرى، مما يعني ضرباً وتعذيباً أكثر، وبالمقابل فإن عدم جوابي سيتوهمه هو تطاولاً عليه، فقلت له:

لسى أول يوم إلي وما انعرضت على التحقيق.

فقال لي:

تبلي جايينك يا عر**، ما تعمل حالك ما بتعريف كمان، أتخاف جاي دورك.

وبعد أن انتهى تصوير الجميع عدنا إلى الزنانات، ولا زلت أذكر ذلك الشاب الذي رفض إظهار الضعف لهم، واسمه أبو صدام، وكان من العسكريين.

* * *

الطعام في السجن

كان الطعام يقدم في السجن على ثلاث وجبات في اليوم؛ الفطور في الساعة السادسة صباحًا، والغداء في الساعة الواحدة ظهرًا، والعشاء في الساعة السادسة مساءً.

فالفطور: كان رغيفًا من الخبز، وملعقة من اللبن، وسبع حبات من زيتون مُرّ كالعلقم.

أما الغداء: فكان رغيفًا من الخبز أيضًا، وملعقة من اللبن والقليل من الأرز الذي يبدو كما لو لم يكن تعرض للطبخ، وكان بعض المساجين يرمي حصته من الأرز في الحمام؛ لأنها كانت تحتوي على الحصى أحيانًا، وقد تسبب تكسيرًا في الأسنان وهو وجع كان يعاني منه معظم الأشخاص في السجن، حتى أصبحت الغالبية إما ترمي وجبتها في الحمام، أو إنهم يقومون بفرز حبات الأرز حبة حبة قبل تناولها، فوجع الأسنان كان هما أكبر من تناول وجبة مليئة بالحصى، ورؤية الأشخاص ممن كُسرَت أسنانهم يضربون رؤوسهم بالحائط من كثرة الوجع كانت كفيلة لتحذر أي شخص من تناول وجبة الأرز دون تنقيتها من الحصى.

أما العشاء: فكان مختلفًا، حيث كان عبارة عن رغيف من الخبز، و حبة من البطاطا المسلوقة، وهي بطاطا كانت جودتها تعتمد على

السجان المناوب؛ فإن كان لئيمًا، كانت البطاطا تأتي إلينا شبه مسلوقة، وإن كان أبو عمر أو أبو عليّ هو المساعد المناوب؛ فإنها كانت تأتي إلينا أكثر نضجًا.

وأحيانًا كان هنالك وجبة غداء أسبوعية مختلفة يوم الخميس أو يوم الجمعة، وتتكون وجبة الغداء هذه من رغيف من الخبز، وملعقة لبن، والقليل من فريكة القمح، و دجاجة لكل خمسة أشخاص. ولم يكن حجم الدجاجة يتجاوز كف اليد، وبالكاد تستطيع انتزاع لحمها من العظم، وغالبًا ما تكون الدجاجة مليئة بالدم من الداخل، وكأنها قد قُطع رأسها لترمى في وعاء الطبخ بعدها مباشرة وقبل أن يخرج الدم كاملاً منها، وكان بعض المساجين يذكروننا أن نتناول لحم الدجاج، وأن نكسر العظم ونأكل ما بداخله؛ لما فيه من فوائد قد تبقي أجسامنا قادرة على مقاومة الجرب والمرض.

* * *

الأمراض فيه السجن

وقد كان الجرب هو أكثر الأمراض انتشارًا في السجن؛ وفتكًا بالمساجين، وذلك لعدم دخول ضوء الشمس إلى الزنانة، ولارتفاع نسبة الرطوبة، مما يساعد البكتيريا والجراثيم على الانتشار أكثر وبسرعة كبيرة، ومما كان يزيد الطين بلة انتشار القمل في الزنازين، فما أن تعض القملة جرحًا حتى تنشر الجرب في كافة الجسم.

ومعظم من تُوفوا في الزنانة كانت وفاتهم بسبب الجرب، حيث كانوا يعذبون إلى أن يمتلئ جسداهم بالجراح، ثم يُرموا في الزنانة والتي هي بطبيعتها مكان مساعد لانتشار القمل والبكتيريا، فكانت تلك الجراح طعامًا سائغًا للقمل والبكتيريا مما يصعب على الجرح عملية الالتئام، فزيد من مساحة الجرح حتى يكبر ويكبر إلى أن يصاب الجرح بالعفن، وبعدها بأيام يفارق المعتقل الحياة..

لقد سلوكًا ممنهجًا، وكانت خطة مقصودة من السجانين؛ الموت البطيء للخونة؛ هكذا كانوا يقولون لنا، وكان الأصعب من ذلك والأمر أن نراهم يموتون أمامنا، ولا نستطيع عمل أي شيء لمساعدتهم.

وبعد أن يفارق المعتقل الحياة يطلب الشاويش من السجنان أن
نخرج الجثة، فإذا قال الشاويش إن فلاناً مات، أو استشهد، أو فارق
الحياة؛ فإن الشاويش يتعرض للجلد والضرب المبرح. كانوا يقولونها
صراحة؛ يجب أن تقول: «فلان فطس» وإلا مصيرك التعذيب..

فمن أنت حتى تقول إن فلاناً قتل، وتتهم السجنان بالقتل،
من أنت حتى تقول إن فلاناً استشهد، ويُتهم السجنان بأنه كافر
وعدو للوطن،

من أنت حتى تقول إن فلاناً فارق الحياة وكان قدره، وتنكر أن القدر
بيد السجنان؟!!

لتعقيم تلك الجروح كنا نستخدم المحل، ولكن إدخاله إلى المهجع
كان مغامرة شاقة، فقد كان بعض عمال السخرة من المتظاهرين يهربون
الملح لنا من المطبخ، وكأنهم يهربون المخدرات، بل وأعظم، فحال تجار
المخدرات في السجن كان أفضل من حالنا بعشرات المرات!

كان السجن يفتش كل أسبوع مرة أو مرتين؛ للبحث عن أي أثر
للملح، يدخل السجنان في أية لحظة، في وضع النهار، أو في الصباح،
أو في منتصف الليل، يفتح الباب بسرعة ثم يبدأ بالضرب بالبورى
الأخضر على الباب ليستيقظ الجميع، وبعدها بخمس ثوان يبدأ

بالضرب عشوائياً إلى أن يقف الجميع، ثم يأمرنا بالوقوف مستعداً والتوجه إلى الجدار، ثم يفتش كل شخص؛ افتح فمك، حركتين أمان افتح جيوبك. فإذا ما وجد السجن أي أثر للملح مع أي منا، كان يعاقبه عقوبة مختلفة عن كافة المعتقلين الآخرين. وكانت عقوبة كل من يجدون معه الملح الشبح ليلة كاملة، حيث يقف الشخص على كرسي، ثم يُربط من يديه في أعلى السقف، ويقوم السجن بركل الكرسي بعدها فيصبح الشخص معلقاً في الهواء. لقد كان للشبح آثارٌ جانبية بشعة؛ وأذكر أن أحد السجناء معنا قد طالت يده من كثرة الشبح حتى إنه فقد السيطرة عليهما طيلة فترة الحبس (ولا أعلم بعدها ما حصل له)، فأصبح يمشي ويدها تترنحان في الهواء لا يستطيع التحكم فيهما ولا تحريكهما.

كان الملح يتبخر كله في اللحظة التي يدخل فيها إلى المهجع؛ فالجميع مصاب بالجروح والأوجاع، والكمية التي تدخل كانت أقل من ثلاثة ملاعق يخبئها السخرة إما تحت إبطه قبل أن يدخل المهجع للنوم أو في ثيابه الداخلية.

كان الملح دواءنا الشافي الذي نستخدمه في مداواة كل الجروح، وفي تسكين آلام الأسنان، ورفع الضغط الدموي، وكان لدخوله إلى المهجع بهجته الخاصة؛ إنها البهجة بمجيء الدواء، فلا وجع بعد اليوم، ثم ما

يلبث هذا الأمل بالتبخر؛ فالكمية كانت قليلة جداً ولا تكفي إلا خمسة أشخاص فقط، ولكن تهريب الملح كان فعلاً يستحق المغامرة، ورؤية الأمل في وجوه المعتقلين لحظة دخول الملح كانت كافية لتعطي طاقة فعالة لكل من يحاول تهريب الملح إلى الزنزانة، طاقة تجدد النشاط وتعيد الخيال إلى الجميع ، اليوم دخل الملح، واعداد لنا قوة وصحة خسرناهما في هذا المرجع، وذلك كفيلاً بأن نستمد طاقة تعطينا أملاً بأننا نستطيع النجاة حتى يمر هؤلاء ال 60 يوماً.

* * *

السجّانون

كان يتناوب على المناوبة أربعة سجّانين؛ اثنان من الطائفة السنيّة، واثنان من الطائفة العلويّة.

فالمساعد نمر والمساعد أبو عمر من الطائفة السنيّة،

والمساعد بو حيدر والمساعد بو علي من الطائفة العلويّة.

والمساعد نمر هو صف ضابط برتبة مساعد من مواليد الزبداني، وكان أشدّ المساعدين حقداً علينا، وأكثرهم إنزالاً للعقاب بنا، حتى أنه كان يخرج بعض المعتقلين أحياناً ويقوم بتعذيبهم؛ فقط لأنه قد شعر بالملل خلال المناوبة!، وكان يأمر كل من تهمته التظاهر من السخرة أن يصطفوا، ثم يقوم بجلدهم بعدها قبل أن يدخلوا الزنزانة، وكان يعطي للحشاشين سلطة علينا فيزيدون من بطشهم بنا حتى أنهم صاروا يساعدونه في ممارسة التعذيب. وقد أحدث ذلك التمييز الذي أوجده المساعد نمر خللاً في التوازن الطبقيّ في المهجع، فزاد الشرخ بين المتظاهرين والحشاشين، وكان عدد هؤلاء الحشاشين أقل من ربع العدد الكليّ للمساجين، ولكن حصتهم في الطعام كانت أكثر من نصف حصّة بقية المساجين!

وفي إحدى المرات كان يعاني وجعًا في سن من أسنانه، ففتح باب الزنزانة وقام بشحط معتقلين من شعرهما، ثم عاد وشحط اثنين آخرين من شعرها أيضًا، ثم ملح أحد المساجين يرتعش خوفًا فأمره بالخروج، وبعدها أخذ المعتقلين الخمسة وأمره بخلع ثيابهم والتسطح على الأرض، ثم بدأ بجلدتهم، وظل يجلدتهم لأكثر من ساعة، وبعدها توقف الجلد، وصار يشتمهم لأن ذراعه بدأت تصاب بالخدر فقد تعب من ممارسة الضرب، وكلما زاد وجع أسنانه كان يزيد في الضرب! لقد كان يحقد علينا ويتعمد الإضرار وإيقاع الأذى بنا لأنفه الأسباب التي لا علاقة لنا بها أصلًا؛ فإذا خرج أصدقاؤه للسهر، ولم يخرج هو للسهر معهم لأنه مناوب كان ينزل بنا العقاب،

وإذا كان مناوبًا يوم الجمعة حقد علينا وأنزل بنا العقاب،

وإذا خرجت مظاهرة في الزبداني، أنزل بنا العقاب،

وإذا قُتل عسكري في أية منطقة في سوريا؛ أنزل بنا العقاب!

كان كثيرًا ما يردد أنه لم يكن يداوم ليستلم معاشه قبل الثورة، أما الآن فهو يحتاج أن يداوم لثماني ساعات يوميًا وستة أيام في الأسبوع ليستلم نفس المعاش، وكلما تذكر ذلك أنزل بنا العقاب، وجملته المشهورة كانت هي:

والله ما كنا ندأوم قبل الأحداث، وبسببكم صرنا ندأوم.
ولا أظنه كان يحتاج لأي سبب لينزل بنا العقاب، وكان ذكر السبب مجرد تبرير يحدث به نفسه؛ ليفسر به وحشيته، ويعلل به تعطشه لسفك الدماء، وقد كانت تلك الوحشية وحدها سبباً كافياً لإسقاط النظام الذي يبقى على أمثال هؤلاء الناس المعقدين في الخدمة.

لم أؤمن دوماً بمقولة الرماديين «هو منيح ويلى حواليه عر**»، فعلم الاجتماع ينفي ذلك؛ فأى مجتمع تعيش فيه فأنت مؤثر ومتأثر، فقد تعلم المساعد نمر هذه الأساليب من أسياده وعلمها لمن هو أقل منه رتبة، ويقول الوجوديون من علماء الاجتماع إن الناس يتم تعريفهم بناء على أفعالهم، وإنهم مسؤولون عن أفعالهم. وعلى سبيل المثال؛ فالشخص الذي يتعامل بقسوة تجاه الآخرين يتم تعريفه -بناء على فعله- بأنه شخص قاسٍ. وعلاوة على ذلك، وبناء على فعل القسوة ذلك، فإن هؤلاء الأشخاص يصبحون مسؤولين عن هويتهم الجديدة (كأشخاص قساة). ووجودية المساعدين كانت تعذيب المعتقلين، وهكذا يثبتون لمن هو أعلى منهم رتبة أنهم يقومون بعملهم. والتعذيب الزائد عند المساعد نمر كان أشبه بالوقت الإضافي لديه، أو ساعة الاستجمام التي تتخلل عمله!

المساعد بو حيدر

هو صف ضابط برتبة مساعد من مواليد الساحل، ينتمي إلى الطائفة العلوية، طوله قرابة مئة وثمانين سنتيمتراً، ودائماً ما كان يلبس نفس البنطلون الأسود المصنوع من القماش، وكأنه لا يملك غيره، وكان يسرق من طعامنا يومياً وكأنه كان يأخذه لبيته أو معارفه. وقد كنا جميعاً سواسية عنده، وعلى حين كان المساعد نمر يحب الحشاشين ويخرجهم للسهر معه أحياناً؛ كان بو حيدر لا يفضل أحداً على أحد، وإنما كان يحتقرنا جميعاً، ويناديننا بالخنونة طوال الوقت.

كان لـ (بو حيدر) عصاً خاصة به، يحملها طوال الوقت، لا تفارقه حتى في طعامه. وأسوأ ما كان فيه هو أنه كان يؤاجر (يساعد) المحققين في التعذيب؛ كان يساعدهم في تعذيب المعتقلين دون أي سبب أو دون حتى طلب من أحد! فإذا ما سمع صوت صراخ حمل عصاه وذهب بها صوب الصوت، ثم بدأ بالضرب مع المحققين، كان ذلك أهم ما يميزه؛ هكذا كان إثبات الوجود لديه، فلا تكتمل شخصيته إن لم يفعل ذلك!

الإنسان بطبعه يميل دوماً إلى الاستقرار والراحة، فأنت تعمل حتى تستطيع أن تؤمن راحتك، وراحتك قد تكون في بيت أكبر أو سيارة

أفضل، أو تلفاز أئمن، أو في الجلوس على كنبه كبيرة لتشاهد التلفاز وأنت مسلتقٍ عليها، أما راحة المساعد بو حيدر فكانت تتمثل في إنزال العقاب بمن هم تحت التعذيب، فكان يبدأ بالضرب قبل السؤال في أكثر الأحيان، ثم يتهم المعتقل بعدم الإجابة لينزل به عقاباً أكبر.

كان المساعد نمر أشد السجانين لؤماً، ولكن المساعد بو حيدر كان أكثرهم حقداً.

* * *

المساعد بو علي

هو صف ضابط برتبة مساعد من مواليد الساحل أيضاً، ينتمي إلى الطائفة العلوية، طوله لا يزيد عن مئة وخمسة وستين سنتيمتراً، قصير القامة نحيف البنية، يلبس دوماً نفس البنطلون الأسود المصنوع من القماش، والجاكيت الجلد الأسود، كما أنه يلبس نفس الثياب دوماً وكأنه لا يملك غيرها، وعصاه أيضاً لا تفارق يده، كان في صوته خنّة، وكانت اللكنة الساحلية مع الخنّة تعقد الأمر أحياناً وتصعب علينا التواصل معه، وبالكاد كنا نفهم ما يقول.

لم يكن شديد التعذيب لنا، وكان الكثير منا يظن أن ذلك يرجع لقصر قامته وضعف بنيانه، فلا زلت أتذكر يوماً أنه حاول ضرب أحد المعتقلين بعصاته، ولكنه توقف بعد بضع دقائق وصار يتنفس بسرعة ويضع يده على ذراعه وكأنها قد تعرضت لنزع في الأربطة.

وكان دائماً ما يضع أذنه على باب الزنزانة ليسترق السمع إلى ما نقول، فإذا ما ذكر أحداً كلمة «انشقاق» أو «مظاهرة» كان يفتح الباب ويرسل بمن يشك بهم إلى التعذيب، وعندما يعجز عن تحديد الفاعل يشير إلى الشاويش أن يخرج من ذكر كلمة مظاهرة أو انشقاق أو يرسل الشاويش

نفسه إلى التعذيب!، وهنا كانت تكمن خسة بعض الشاويشية (خاصة الحشاشين) فيقومون باتهام شخص عشوائي ليرسله الشاويش إلى التعذيب بدلاً عنه.

لم يكن يعذب هو، ولكن كانت الوشاية دائماً وسيلته. لم يكن سيئاً في التعامل معنا، وأذكر أنه كان دوماً ينادينا بالعراير . لم يفوت فرصة للوشاية بنا، أو لإرسال أحدنا إلى التعذيب، ولكن كنا نختاره دوماً ليكون سجاناً علينا مقارنة بالمساعد نمر والمساعد بو حيدر.

* * *

المساعد أبو عمر

هو صف ضابط برتبة مساعد من مواليد ريف درعا، خربة غزالة تحديداً، ينتمي إلى الطائفة السنيّة، طوله قرابة مئة وثمانين سنتيمتراً، ووزنه يزيد على مئة وعشرين كيلو غراماً، وكان أرأف السجانين بحالنا، ولا زلت أذكر أننا أحياناً كنا نغني في الزنزانة عندما نعلم أنه هو السجان، كان كل ما يفعله هو الضرب على باب الزنزانة وأن يصيح: «ما بدّي صوت ولك قرد إنت ويّاه». ورغم كونه من ريف درعا ويتكلم اللهجة الحورانية الثقيلة، إلا أنه كان يستخدم اللكنة الساحلية للتعبير عن غضبه؛ فقد كانت اللهجة الساحلية هي اللهجة الرسمية للعسكر وأبناء السلك.

لم أره يضرب أحداً ولا يساعد في تعذيب معتقل خلال فترة احتجازي في الفرع 227، كان الطعام أكثر وفرة خلال مناوبته، وكل ما يقوم به المساعد أبو عمر هو شرب الشاي طوال الوقت، وأحياناً كان يفتح الباب فجأة فيقوم بالصراخ قليلاً، ثم يعود إلى كرسيه ويكمل شرب الشاي. في البداية لم أعلم سبب الصراخ الذي كان يقوم به بشكل دوريّ، فقد كان سلوكه منتظماً وكأنه يحمل منبهًا يذكره كل ثلاث

ساعات أن يفتح باب الزنزانة، ويضرب بعصاه على الباب قليلاً ثم يصرخ ما بدّي صوت ولك حيوان إنت وياه.

في إحدى المرات كانت الزنزانة تضج بالمساجين، وكان متوسط عددهم قُرابة اثنين وسبعين معتقلاً في الزنزانة التي لا تزيد مساحتها عن أربعة أمتار في أربعة أمتار شاملة الحمام. كان هناك خمسة وثلاثون شخصاً يقفون طوال الوقت إلى أن يحين دورهم في الجلوس، والدور لا يحين إلا بخروج بعض المعتقلين! وقد وصل العدد في أحد الأيام إلى أربعة وثمانين شخصاً مما اضطرنا إلى الوقوف جميعاً فصارت رائحة العرق تملأ المكان، حتى أحس بها أبو عمر، ففتح الباب ثم نظر إلينا نظرة ملؤها الشفقة، وصاح أحد المساجين وقال:

يا سيدي والله اختنقنا، ثم كرر بعض السجناء نفس العبارة، فهزّ أبو عمر رأسه قائلاً:

رَح خَلِّي الباب مفتوح، بس يلي بشوفوا مطالع صوت يا ويله. وقد كانت فُتحة الباب هذه نافذة لنا إلى الحياة، ونفحة مباركة من الحرية التي فقدناها ونتوق إلى لحظة الخلاص لنعود إليها، كان مجرد أن يُفتح لنا باب فترى ما وراءه، ونطالع ما هو بعد المهجع؛ لوناً جديداً من رفاية الحرية، وشعاعاً بارقاً من عالمها المثاليّ قد نفذ من جدار المستحيل

وصولاً إلينا، مهيباً لنا على تذكر ما كنا قد تركناه وراء ذلك الباب من ملامح العالم الآخر؛ من طعام أكثر وأجود، وشراب أطهر، وهواء أنقى، وأناس أفضل وأخير، وحرية أكبر، ومحدراً لنا من أن نحتجب بجدران الزنزانة، أو أن نتوهم أنها نهاية المطاف، ومستحثاً إيانا أن نحلم بالخروج، وأن نأمل من جديد في الفرج والانتعاق!

وقبل أن ينهي المساعد أبو عمر مناوبته يومها أغلق علينا الباب، وأنهى معه الحلم، وقطع الأمل الذي عشناه لبضع ساعات، ولكن الحقيقة فقد كانت بضع الساعات تلك كافية لتحيينا من جديد، وأن تنفث فينا روح الرجاء في الحياة؛ وتجتشم جحيم العيش في السجن؛ لنخرج يوماً ما فتحة ذلك الباب، ونمارس حريتنا من جديد.

وللأمانة فأبو عمر قد ضرب شخصاً واحداً خلال تواجدي في السجن، كان ذلك يوم الاستحمام، ففي كل أسبوعين كنا نخرج للاستحمام مرة أو مرتين، والاستحمام ههنا مختلفٌ عما عهده الناس من أنماط الاغتسال، وبعيد حتى عن حيّز تصوره الطبيعي؛ وفيه يخرج كلّ اثني عشر شخصاً سوياً، وكل ثلاثة أشخاص منهم يستخدمون نفس الدوش، ويبدأ العدّ لمدة البقاء تحت الدوش بمجرد نزول الماء؛ حيث يقوم المساعد بالعد حتى الرقم 6 هكذا: واحد، تين، ثلاثة، أربعة،

خسي، ستي، ثم يصرخ على إثرها: الكل لبرّا، ويبدأ بالضرب والبطش
يمنةً ويسرةً!

ست ثوان لم تكن كافية لخروج الماء الساخن، تفتح الصنبور
فيخرج منه ماء بارد كالثلج، وخلال ست ثوان يجب أن يغتسل ثلاثة
أشخاص باستخدام نفس الدوش، فيا له من استحمام؛ لقد كان أشبه
شيء بالعقوبة!

وبعد أن انتهى الجميع من الاستحمام، دخل أبو عمر الزنزانة
غاضبًا، وقال: مين الحيوان يليّ ما طلع ليتحمم؟؛ وقام بفحصنا جميعًا،
ثم وجد الشخص المطلوب، لقد كان شابًا من الحشاشين، وكان أبو
عمر يكرههم أكثر من غيرهم، لكونهم كانوا يتواصلون مع المعتقلين
الآخرين، ويتصرفون كما لو أنهم يملكون المعتقل، وذلك كان بسبب
دعم المساعد نمر لهم. وقد قام بضرب ذلك الشاب قُرابة خمس عشرة
جلدةً، ثم جلد الشاويش بعدها، والذي كان أيضًا من الحشاشين قُرابة
عشر جلدات.

وكان أبو عمر كان يُحضر دكتور السجن لفحص المعتقلين كل
أسبوع، حيث يقوم الدكتور بفحص جميع من يشتكون من آلام، ثم
بعدها يعطي الجميع نفس الدواء، ويتظاهر للدكتور بأنه يعطي دواء

مختلفًا، ولكن الدواء دومًا لم يعد أن يكون حبة زرقاء اللون تبين لاحقًا أنها كانت مسكنًا للألم، وفي آخر أسبوع لنا في المهجع صاروا يدهنون جروح بعض المعتقلين بال مطهر الأحمر وهو معقم كانوا يستخدمونه قديمًا لمداداة الجرب.

وفي إحدى المرات كان معنا شخص يعاني؛ لقد كان يصارع المرض ويشتكي الألم في جهة القلب، وظننا جميعًا أنه سيموت، وعندما خرج ليعرض على دكتور السجن قال الدكتور بأنه سيحوله للمشفى العسكري، فأشار أبو عمر للمريض بحاجبه وكأنه يطلب منه ألا يذهب، فقال المريض للدكتور بأنه لا يتألم كثيرًا وبأنه فقط يحتاج لمسكن ألم أو مضاد حيوي! وبعد أن خرج طبيب السجن نادى أبو عمر المريض وقال له بأنه لو ذهب فإنه سوف يموت قبل أن يصل!

وقد انشق أبو عمر عن النظام بعدها بستة أشهر، فسررت عند سماع الخبر؛ فالشخص الوحيد الذي كان يحمل رافة بالناس انشق عن النظام الفاسد، وذلك النوع من الأخبار يعطينا نوعًا من الـ «validation»، ويزيد من ثقتنا بأننا على الطريق الصحيح، فما دام مثل هذا الشخص قد انشق عنهم وانضم إلينا؛ فنحن إذاً على حق.

ومضت سبعة أيام ولا زلت لم أحظ بأي قسط من النوم، وللأمانة فقد كنت أحاول أن أنام، ولكنني أبدًا لم أستطع؛ إذ كيف سأنام وأنا واقف؟!،

وكيف سأنام وفي كل مرة يدخل شخص الحمام يضغط عليّ للتراجع حتى يستطيع هو الدخول! ولا زلت أحاول ولكن عبثاً. وقد ناداني الشيخ بعدها وقال لي: يا ابني، لازم تنام، لازم تحاول تنام، ولحتى تنام، لازم تبطل تفكر وتشغل مخك، كلما فكرت كلما طار النوم من عيونك، حاول، اغضب حالك لتنام، إذا ما بتنام، رح تعبى السموم جسمك. وأخبرني من مخاطر عدم النوم، وقدم لي نصائح لا أستطيع حتى أن أطبقها؛ إذ كيف لي ألا أفكر، وكيف لي أن أبطل عمل دماغي، وتمنيت أن لو كان هنالك مفتاح (switch) أضغط عليه فأخلد للنوم بعدها!.

وعدت إلى مكاني، وحاولت أن لا أشغل دماغي حتى أستطيع النوم، وكلما حاولت ذلك تذكرت الجامعة والمواد والمخبرات والمحاضرات، وأصدقائي ماذا يفعلون، كيف يقضون يومهم، وكيف تسير المحاضرات في غيابي.. كان حلمي أن أحصل على شهادة ماجستير في الهندسة، لكن يبدو أن هذا الحلم قد بدأ التلاشي؛ إذ كيف سأحصل على الماجستير وأنا محبوس هنا، فغيابي عن المحاضرات يعني بأن معدلي الجامعي سينخفض، وكلما طالت فترة غيابي قلت فرصتي في تحقيق معدّل أعلى. وتحول السجن حينها من سجن جسديّ إلى سجن عقليّ أيضاً، وبدت أفكاري كلها مرتبطة بهذه الزنزانة، وتحولت من شخص

حرّ طموح يحلم بالتغيير، إلى شخص يضع الزنانة عائقاً لكل شيء،
وعندها أصبحت الزنانة تشغل كل زاوية في تفكيري.

استيقظت بعدها وذهبت إلى الجامعة، سلكت طريق يلدا بيت سحم،
يبدو بأن التغيير بدأ يُعطي ثماره، لم أعد أشكو من الموسيقى الصاخبة في
الصباح، حتى أنني صرت ألاحظ كلمات الأغاني أكثر خاصة مع هدوء
الموسيقى الملازمة للأغنية، وهو شيء كنت أستصعبه من قبل، فأصوات
الموسيقى الصاخبة كانت تجهد دماغي إلى أن أعجز عن التركيز في أيّ
شيء، واليوم صرت أأذوق الموسيقى أكثر؛ تخاطبني فيروز بموسيقى
هادئة: سألتك حبيبي لوين رايمين، فأجيبها: إلى الجامعة..

دخلت الجامعة ورأيت أحد أصدقائي، مشينا سوياً من الباب
الرئيس إلى كلية الهندسة الطبية، لاحظت بأن لون العشب أصبح أجمل،
وأكثر اخضراراً، ثم نظرت يميناً ويسرة؛ جميع الأعشاب أصبحت
أجمل، تمعنت أكثر فرأيت مرشّات الماء تعمل، فقلت في نفسي: ربما هو
من أثر الماء عليها وقد أعطاها لمعة خاصة اليوم. وصلت إلى المحاضرة
وتفاجأت بأن المحاضرة الأولى كانت مادة الدوائر الكهربائية، وهو
شيء لم أكن أعرفه، كيف حدث ذلك، لقد كنت أتوقع مادة أخرى،
وكيف لي أن لا أعرف بأن المادة الآن هي دوائر! وما هي إلا بضعة ثوان

حتى دخل دكتور الدوائر ومعه أوراق امتحان، نظرت إليه باستغراب، تساءلت في نفسي: لماذا يحمل أوراق امتحان؟!، فنظر إلى صديقي وقال: شو شايفك متفاجئ، لتكون ناسي إنو اليوم في امتحان، مو على عوايدك، ثم أكمل قائلاً:

أنا اجيت أقعد جنبك فكرتُك رح تغششني، شو معلم؟ طلعت مو دارس، لأقوم لآقي مكان غير هالمكان لكان، ثم غيّر مكانه.

وبدأ الدكتور بتوزيع أوراق المذاكرة، وأخذت ورقتي، كانت عبارة عن ثلاث مسائل من النوع الذي يطول حله، وأذكر أنني بدأت الكتابة، وانتهى الوقت ولا زلت لم انته من حل المسألة الأولى، ومدّ الدكتور يده ليأخذ ورقة الامتحان مني، ولكنني كنت أحاول أن أكتب أكثر، فصار يصيح عليّ بأن أسلمه ورقتي، وأنا أقول له: الله يخليك بس شوي، رح خلّص.. كنت أحاول أن أنهي حلّ المسألة الأولى على الأقلّ، فدكتور الدوائر في ذلك الوقت كان من النوع الذي يصحح بأن يعطي العلامة في حال رأى نتيجة، فإذا رأى نتيجة، قام بعدها بالتدقيق في الحلّ ليرى إن كان الطالب قد حلّ المسألة فعلاً أم قد غشّ الجواب النهائي غشاً. وكل ما كنت أحاوله هو أن أنهي حلّ المسألة لأحظى بعلامة تلك المسألة، وبينما أن أقول: الله يخليك بس شوي، رح خلّص؛ قام بسحب

الورقة مني، فتبعته وصرت أقول، الله يخليك دكتور، بس ضايل أكتب الجواب، وبينما أنا أتبعه وقعت وأحسست بوجع في رأسي، ومرت بضع ثوانٍ وأنا أحاول أن أفتح عيني، ولكن كلما حاولت فتحها، زاد الوجع أكثر، فصرت أحاول فتح عيني ببطء، ونظرت حولي، وإذا بالجميع ينظر إليّ باستغراب.. ما هذه الوجوه الشاحبة، يبدو أن الامتحان كان صعباً على الجميع... مَنْ هؤلاء، هؤلاء ليسوا زملائي في الجامعة، أين أنا، ماذا يحدث حولي بالضبط؟!

وناداني الشيخ وقال، يا ابني، قتللك لازم تنام مشان ما يصير معك هيك، أنت كنت فاصل مو بوعيك، نظرت إليه، ثم قلت في نفسي: يستحيل ذلك، لم يكن ذلك حلمًا وإنما كان ذلك حقيقة، الحلم لا يدوم طويلاً، أما ما رأيته فقد دام لساعات، حيث استيقظت وتوجهت إلى الجامعة ثم مشيت إلى الكلية، وصعدت الدرج إلى الطابق الثاني، وحللت بعدها مذاكرة دامت لمدة ساعة على الأقل. والآن تخبرني بأن ذاك كان حلمًا، هذا مستحيل!. وبعدها تذكرت أنني تبعت الأستاذ لأضع الإجابة على المسألة، كما أنني الآن لست في المكان الذي اعتدت أن أجلس به في السجن؛ فقد تحولت عن موضعي المحدد لي! فأجابني الشيخ على ذلك، وأخبرني بأنني كنت أدوس السجناء وأقول: الله يخليك دكتور بس أحط الجواب..

وأحسست بالكآبة بعدها، وكنت قد ظننت بأني عدت إلى الجامعة لأتابع حياتي الدراسية، ثم تبين أن ذلك كله كان حلمًا!

ونظر إلي الشيخ وقال، ع الأقل نمت شوي وهاد منيح، بس لازم تحاول تنام أكثر حتى ما يرجع يفصل مخك.

وتشخيص ما حدث أنه بعد ثلاثة أيام من الحرمان من النوم تزداد رغبة الإنسان في النوم بشدة، ويُضعف الحرمان من النوم القدرة لدى الشخص على الإدراك بشكل كبير، وقد تصبح الهلوسة أكثر شدةً، وقد تظهر الأعراض التالية أيضًا:

رؤية وتخيل الأوهام،

اضطراب التفكير،

تبدد الشخصية.

وبعد أربعة أيام من الحرمان سيتشوه إدراكك للواقع بشدة، وستشعر أيضًا برغبة عارمة في النوم لا تطيق مقاومتها، وإذا فاتك الكثير من النوم بحيث لا يمكنك تفسير الواقع، فإن هذا يسمى ذهان الحرمان من النوم، وعادةً ما يختفي بمجرد حصولك على قسط كافٍ من النوم.

فحالة الهلوسة تلك، وعدم إدراك الواقع، واختلاط الواقع بالأوهام كانت ذهان الحرمان، وهي طريقة تعذيب نفسية، حيث يوضع الشخص

في مكان يصعب النوم فيه، إلى أن يفقد الشخص الإدراك، فيقوم بعمل بلبله باللاوعي في السجن، فإذا ما علت الأصوات في الزنزانة يدخل السجن إلى المهجع ويقوم بإنزال شتى أنواع العقاب بالشخص الذي أصابه ذهان الحرمان من النوم، وهنا يكون العقاب أبشع، حيث يدخل السجن إلى مرحلة اللاوعي الخاصة بالمعتقل، ويتوغل في عالمه الخاص الذي صنعه لا وعيه بعيداً عن جدران السجن ورائحته الكريهة، وما يلبث الشخص يبني عالماً من الخيال حتى يخترق السجن صورة ذلك العالم، ويهجم كالوحش المسعور باتجاه المعتقل، فيفسد عليه واقعه وخياله!

وفي حالي وبعد أن استيقظت لم تحدث بلبله، فجميع الذين مررت فوقهم باللاوعي الخاص بي كانوا من العساكر المعتادين على كل أنواع العقوبات، وبالنسبة إليهم كانت أشبه بعقوبة سريعة، وبالنسبة إليّ، كنت أركض وراء دكتور في الجامعة خلف مصلحتي ودرجاتي.

لم أنس ذلك اليوم؛ يوم أن استيقظت ظاناً بأنّي قد عدت إلى الجامعة، وفتحت عيني لأجد نفسي مجدداً في المهجع ج3، ولا زال ذلك المشهد يحزّ في ذاكرتي.

كان بعض الناس يقولون بأن هنالك أشخاصاً يسجنون ليرووا ما شاهدوا للناس في الخارج حتى يعتبروا، ولأنّي كنت أنا الشخص الأول

الذي يُطلب إلى التحقيق كانت هذه نظرية قوية؛ لأنني لم أُعرض على محقق خلال الأسبوعين الأولين، ولكن كانت هنالك نظرية أخرى بأن واسطتي كانت كبيرة؛ فلذلك كان نصيبي من التعذيب أقل بكثير من غيري.

وبعد مضي عدة أيام صرت أتكلم مع الجميع وأحاول أن أكوّن صداقات لعلّي أضيع بعض الوقت. وتبين لي أن هنالك ثلاثة أنواع من المتهمين، ولكل تهمة عدة أصناف:

الحشاشون، أو المتهمون بتعاطي المخدرات،

العساكر، أيّ عسكريّ متهم بالتقصير في خدمته أو الانشقاق،

المتظاهرون، وتندرج ههنا عشرات التهم ما بين مشارك إلى محرّض إلى منسّق.

* * *

الحشاشون

يندرج الحشاشون تحت صنفين، وهما كل من يدخل السجن بتهمة التجارة (بالمخدرات أو الحشيش) أو التعاطي لأيٍّ منهما، وغالبًا ما تكون التجارة أسوأ مكانة عند المحقق، وقد تصل عقوبتها إلى الإعدام الميداني خلال التحقيق، لم نَرِ أيًّا من هؤلاء، وكل ما أعلمه عنهم مصدره الإشاعات والأقاويل التي كانوا يرددونها قبل أن يذهبوا إلى التحقيق، حيث يوصي بعضهم بعضًا بالاعتذار بالتجارة تحت أي ظرف كان؛ لأن ذلك عقوبته الإعدام الميداني، فكان التعاطي هو أقصى مضمون اعترافهم عند الخروج إلى التحقيق.

وقد كان الحشاشون هم أسوأ المعتقلين، وأكثرهم صنعًا للمشاكل، وكانوا يعملون مخبرين على المساجين للمساعد المناوب على الزنانات، مقابل أن يوليهم المساعد شوايشية للسجن، والشاويش هو الشخص الذي يترأس السجن ويقسم الطعام بين المساجين، مما يعني أنهم يأخذون ما يريدون من الطعام، وإن حدث وتلاست مع أيٍّ أحد منهم، فإنهم يبلغون المساعد عنك، ويصفونك بأنك أحد العراير يشتكي من حالته في السجن، فيقوم بعدها المساعد بشحط المشتكي وإنزال شتى

أنواع العقاب به، ووصف العرعوريّ كان فقط ليزيد المساعد المناوب من حقه عليه.

وأسوأ الحشاشين كان معتقلاً من منطقة دفّ الشوك يعمل في مصنع بلوك يدويّ، اعتقل بكبسة من الأمن على مركز لبيع الحشيش والذي كان بالصدفة مصنع البلوك الخاص به، وقد عمل لاحقاً في السخرة، ثم بعدها في تعذيب المعتقلين.

كان هذا الشخص متسلطاً فعندما يأتي الطعام إلى الزنزانة، يقوم هو نفسه «لكونه الشاويش» بتوزيعه على المساجين في فرق من خمسة أشخاص، بينما كان هو ورفاقه يأخذون نفس الحصة لشخصين. ليس هذا كل شيء؛ بل قد كان ينادي المتعلمين بالطنطانات والمختئين، ويسخر منهم، ودائماً ما يقول إنهم السبب في خراب البلد، وإن الحشاشين هم أفضل الشعب؛ فهم لا يؤذون أحداً، وليس لهم إلا شغلهم وحشيشهم.. وقوله هذا ليس إلاّ دعوى قام الدليل الواقعيّ على بطلانها وكذب مدّعيتها؛ وليس للأذى مفهوم مطلقاً في تصور مثل هذا الشخص؛ وإلاّ فمن يسرق الطعام، ويتهم الناس بآتهامات باطلة ليتسبب لهم في عقوبة قد تصل أحياناً إلى مائة جلدة ورشّ بالماء البارد في منتصف فصل الشتاء، ويعذب الناس مع المحققين أكثر من المحققين

أنفسهم، ثم يقول إنه لم يؤذِ أحداً؛ هو لا شك كذاب أشر. والغريب في الأمر أنه عندما تم التحقيق معه نتف المحقق ذقنه شعرة شعرة، وأطفاً في جسده السجائر، وعلقه في السقف فيما يسمى بـ (الشبح)، حيث يربط الشخص من يديه ويعلق في السقف لفترة من الزمن تتراوح ما بين ربع الساعة واليوم الكامل. وقد حاول المحقق لاحقاً أن يتهمة بالتظاهر، فلا نعلم - على الرغم من كل ما ارتكبه مع هذا الرجل من الفظائع - السبب وراء كونه كلباً مخلصاً لهم؛ يعذبنا متى أرادوا، ويشي بنا بعد انتهاء نوبة السخرة، ويسرق طعامنا، ويهددنا دوماً بالتبليغ عنا للمساعد!

ولكن للأمانة فلم يكن كل الحشاشين سيئين، فقد كان بينهم شخص مسالم، يعمل في الدهان، شخص لا تسمع منه إلا كلاماً طيباً إن تكلم، وقد أثرت صحبته للحشاشين عليه فتغيرت طباعه من متعاطف معنا إلى شخص رمادي؛ حيث إنه لا يمانع امتياز به بأن يأخذ حصة أكبر من غيره في الطعام، ولكنه لم يكن ينكر أن ذلك فيه ظلم.

* * *

العساكر

وتختلف تهمهم ما بين رفض إطلاق النار على المتظاهرين، وعصيان أوامر الضابط الأعلى، والتفكير في الانشقاق أو الانشقاق ثم القبض عليه بعد محاولة للانشقاق، وهذا الصنف الأخير أعني من اعتقلوا وهم يحاولون الانشقاق كانوا يتعرضون لكافة أنواع التعذيب من اللحظة الأولى التي يُعتقلون فيها إلى أن يفارقوا الحياة. وقد كنا نعلم بوجودهم عندما نسمع أصوات التعذيب ليل نهار. وغالبًا ما كان التعذيب يبدأ في الصباح، وبعده موجة أخرى في الظهر، ثم موجة أحيانًا وقت الغروب. ولكن إذا سمعنا صوت التعذيب طوال الليل، فهذا يعني أنهم قد أحضروا شخصًا أُلقي القبض عليه وهو يحاول الانشقاق، فيعذب من اللحظة الأولى التي يدخل فيها السجن إلى أن يفارق الحياة. والمحظوظ منهم من يُعتقل مساء حيث يكون المحقق متعبًا من التعذيب، وهنا يتعرض العسكري لحفلة استقبال دموية لمدة ساعتين أو أكثر، ثم يحظى بقليل من الراحة من التعذيب إلى الصباح الباكر؛ حيث تبدأ موجة التعذيب الجديدة وخلالها يعذبون إلى أن يفارقوا الحياة!

وطوال فترتي في السجن رأيت ثلاثة أشخاص منهم في الزنزانة، معظمهم كان يخدم في الفرقة العاشرة في منطقة الكسوة، وقد حدثتهم وسألتهم، هل أنتم نادمون، فاختلفت أجوبتهم، وقد بكى أحدهم كثيراً، ورفض أن يقول إنه نادم، ولكنه غصّ كثيراً، وحاول أن ينطق مصرّحاً بندمه فلم يستطع؛ لم يستطع أن يقول بأن رفضه لقتل الناس أوصله إلى ما هو فيه، وللأمانة فأنا لا ألومه؛ فقد رأى الموت بعينه مرات عديدة في ذلك اليوم، وهو يعلم علم اليقين بأن حياته وإن طالت فإنها لن تتعدى بضعة أيام.

وأما الشخصان الآخران فكان لهما نفس الجواب، فجوابهم كان: لا ندم، وقد تحدثت مع أحدهم أكثر؛ لكوني أحسست بأنه يريد الكلام، وبعد أن أسرّ إليّ، بدأ بالحديث، فقال:

ما فعلناه يسمونه خيانة عظمى، فأنت ترفض أوامر سيدك وتردها عليه هي أكبر خيانة في الجيش، ولكن إن كان سيدك يأمر بك بقتل أهلك، وهم أناس مدنيون لا ذنب لهم ولا قوة، فلماذا يتهمونني بالخيانة؛ ألكوني أرفض قتل شعب أقسمت على حمايته؟!

علمونا أن الشعب أساس السلطة، وأن الجيش في خدمة السلطة، والسلطة هي الشعب، فكيف أقتل هذا الشعب إذاً!

إنهم مجرمون، بل هم أكثر من مجرمين؛ فإجرامهم وصل حد الفجور، ونحن نرفض أن نكون مجرمين، ونفضل الموت على ذلك، ثم أجهش بالبكاء على إثرها، وأخبرني بأنه خائف؛ خائف لأنه يعرف أنه سيموت غداً، وقد بكيت معه وقلت له: أنت لم تقتل ولم تظلم، بل أنت مظلوم، وربنا مع المظلوم على الظالم. وبكى مرارت عديدة، فكلما نظرت في عينية أو رأيت دمعته سألت دمعة على خدي تقلائيًا، ثم حضنني وقال: ادعيلي ما أتوجع كثيرًا، فقلت له: سأصلي لك. كان رأسه مهشماً والدم يخرج من كل بقعة في جسده. وفي الصباح جاء المحقق، وفتح الباب، وقال للشاويش هاتلي هالخابين، ثم نظر فيه وجه الشاويش وأشار إلى العسكري وقال:

هالآخو المن***..

وسمعنا صراخه لمدة ساعتين، وبعدها اختفى صوت الصراخ، وحل صوت الأنين محله، إلى أن اختفى ذلك الصوت، وعم السكون المكان، فبدأنا بعدها في البكاء، وعلمنا أنه قضى نحبه تحت التعذيب، وأن المحقق أصر على تعذيبه بالقرب من زنزانتنا كي نسمع أصوات التعذيب كلها!

وتمنيت أن أملك شجاعة هذا الشاب لأقول ما قاله، ولأخرج إلى الموت مرفوع الرأس كما فعل، فأية شجاعة تلك، وأي بأس كان يملك،

ويقال بأنها شجاعة ما قبل الموت، فعندما تدرك أنك ميت لا محالة؛ فإنك لن تخشى شيئاً بعدها.

وقد قابلت الكثير من العساكر بعدها في المهجع ج3 منهم من فتح قلبه وروى لي قصته، ومنهم من لم يأمن لأحد وفضل أن يحتفظ بها لنفسه ما يزيد على المئتين، وأذكر منهم:

العسكريّ الإدليّ، ابن جسر الشغور

كان شاباً لم يكمل التاسعة عشرة من عمره، أشقر الشعر، حليق الرأس، دخلنا المهجع في نفس اليوم، كان له الكاريزما الخاصة به، كان طفوليّ الروح؛ وكل ليلة قبل أن ينام يخلع بذلته العسكرية ثم ينظفها من القمل ويطويها، ثم ينام، إذا صاح أحد باسمه يقف باستعداد، وإذا سأله أيّ شخص عن أيّ أحد يشي به بلمح البصر، كان مثلاً للانضباط والعواينية. كان ببساطة مثلاً للعسكريّ الذي يحلمون به؛ لا ينطق إلا إذا سئل، وإذا سئل اعترف عن الجميع، وكلما ناقشه أحد في شيء يثبت ضلوعه بمشكلة كان يجھش بالبكاء.

وقد علمت منه أن والده أرسله إلى الخدمة عندما تم تبليغه للمرة الأولى. وقد تناقشنا في إحدى المرات وذكر لي أن والده قال له: العسكرية بتساوي رجال، وإنه ليصبح رجلاً يُعتمد عليه، يجب أن يخدم في الجيش

خدمة العلم، ولكنه على ما يبدو لم يصبح الرجل الذي أرادته والده، وإنما بقي طفلاً من الداخل، كنا نشك بأنه يعاني مشكلة عقلية، فقد كان دائماً ما يروي لنا ما يحدث بطريقة مختلفة، وكان يكذب كثيراً، ويحلف بالله كثيراً، ولكن تأكد لنا أنه إذا حلف بـ «شرفه العسكري» فإنه يكون صادقاً دوماً.

وتجادل في إحدى المرات مع أحد المعتقلين العسكريين حدثم صرخ العسكري الإدلبي في وجهه وقال:

بتحلف بشرفك العسكري!

وسخرنا منه جميعاً؛ إذ كيف تُرمى في السجن لأنك عسكري، وبلا ذنب اقترفته ثم تحلف بالشرف العسكري، فأَيُّ شرف هذا الذي تتحدث عنه!

وسكت العسكري الآخر ورفض، وأحسست بغضته، كان يريد لعن هذا الشرف فما حلَّ به إنما كان بسبب هذا الشرف، فالعقوبات كانت إهانة لنا طوال الوقت، وتنفيذ أوامره كان هو الشرف بالنسبة لهم؛ إنه الشرف الذي لا نعرف من مظاهره سوى الذل وعقوبات «جورة الوسخ أو ما يعرف بالجاموكة»، و «التمرين السادس»، و «كيف تطلع الشمس على سماء الكتيبة».

كان ذلك هو ما يريدون، البدلة العسكرية فوق كل شيء، والشرف العسكريّ قبل كل شيء، قبل الدين وقبل الأهل والحياة والهواء الذي تنتنفسه، ومن السخافة حقًّا أن يكون الشرف العسكريّ مندرجًا تحت نقطتين:

الالتزام بأوامر من هو أعلى منك رتبة،
وأنت وكل ما تملك لمن هو أعلى منك رتبة.

وعندما سمع المساعد جداهما، فتح باب الزنزانة بقوة، وكان بو حيدر هو السجنان يومها، ففتح الباب وبدء بالصراخ، مين يلي حلف بالشرف العسكريّ، مين الحيوان يلي حلف بالشرف العسكريّ، وانتهى صراخه بعدها بالقذف والشتم والسباب والكفر، ونظر إلى الشاويش وقال له:

يا بتطالعلي أخو هالم*** يلي حلف بالشرف العسكري يا بتفشش فيك.

فقفز الشاب الإدلبّي وأشار إلى منتصر، وبأن زميله هو من حلف بالشرف العسكريّ، وأصابنا الدهول جميعًا، هل هو فعلاً قد وشى بزميله بفعلة فعلها هو؟!

فأية وقاحة هذه! وهل اليأس قد يقود الإنسان إلى أن يفتری على زميله، وأن يرمي زميله إلى الموت بفعلة فعلها هو؟!

وللأمانة فإن شاوئشنا يومها لم يكن من الحشاشين، وقد نطق بعدها قائلاً:

سيدي أنا ما شفت مين، بس الصوت يلي طلع بيثبه صوت هاد الولد، ثم أشار إلى العسكريّ الإدليّ.

وأمر السجنان كليهما بالخروج، وأنزل بهما أشد العقاب، وأفزع الشتائم:

إنتو عار على الشرف العسكري، أمثالكم يجب أن يعدموا ميدانيًا، ثم يرموا لكلاّب الشوارع، ثم يقتل أهاليكم، وتغتصب نساؤكم، ثم أنهى ضربهم بتهديدهم من جديد بأنه إذا سمع أي منهما حلف بالشرف العسكري فسوف يقوم بتصفيته هو بنفسه.

والواقع أن الغالبية العظمى من المعتقلين العسكريين الذين اتُّهموا بالانشقاق كانوا ممن اعتقلوا بلا دليل، مما يعني أن أحد العناصر كتب فيهم تقريرًا بأنهم يريدون الانشقاق من غير إثبات صحة ذلك. وأما الذين اعتقلوا وهم يحاولون الانشقاق فقد كانوا يعذبون إلى أن يفارقوا الحياة. وأما من اعتقلوا بسبب شكوى أو بدون دليل فكانوا يتعرضون لشتى أنواع التعذيب إلى أن يعترفوا تحت ضغط التعذيب، فإن اعترفوا يتم تحويلهم إلى سجن صيدنايا، ثم يكون الإعدام الميدانيّ.

وبعد قُرابة نصف الساعة من التعذيب، رمى بهم المساعد بو حيدر في المهجع، ثم نظر العسكريّ الإدلبّي إلى زميله وقال:
هي تعذبنا بسببك.

فأُني فُجور هذا؛ هو قد افتأت على زميله، والآن هو يلومه!
ولم تكن تلك الحادثة هي الأولى؛ فلا زلت أذكر في يومي السادس عشر من الاعتقال بعد أن أصبح لي حصة في النوم، وهي حصة مخصصة تستطيع النوم فيها متكئاً بدلاً من النوم واقفاً، وهنا تتراوح الفترة ما بين الأسبوع والأسبوعين حتى تحصل على هذه الحصة. كانت الحصة ساعتين في اليوم، تجلس وتنام وأنت جالس إلى أن يقول الشاويش كفى.
وكوني أنا والعسكريّ الإدلبّي دخلنا في نفس اليوم، يعني أنا سنكون جارين في الجلوس والطعام، وفي النوم أيضاً. كنّا أنا وهو من تناوبنا في تلك الليلة، كانت ليلة من ليالي كانون، والبرد يملأ المكان، والصمت كذلك، لا يشوب هذا الصمت سوى صرخات المساعد بو حيدر يومها كل فترة.

ونام العسكريّ الإدلبّي ساعتين، وبعدها حان وقت نومي، فصاح بنا الشاويش لتبديل وقت النوم، ولسوء حظنا فإن الشاويش حينها كان الحشاش، فأيقظت العسكريّ الإدلبّي وقلت له إنه حان وقتي في النوم،

ففتح عينيه وبدل جلسته، وأكمل النوم! وأيقظته مرة أخرى ولكنه رفض، وبعد ذلك أخبرت الشاويش بأن بديلي يرفض تبديل النوم، فذهب الشاويش وأخبره بذلك، ورد العسكريّ الإدليّ بأنه حان وقت نومه هو، وأني كنت نائماً قبله، وحلف له على ذلك!

وأصر الشاويش على أنه رأي واقفاً طوال الوقت، وأن الوقت وقت نومي أنا لا وقت نومه هو، وعندها ذهب العسكريّ الإدليّ وصار يضرب على باب الزنانة.

وصاح جميع من في الزنانة بعدها: أكلنا هوا!

فكونه ضرب على باب الزنانة يعني أنه يطلب السجن، وهذا وحده عقوبة كبيرة، فمن أنت حتى تنادي السجن، وكيف تجرؤ على أن تعكر عليه خلوته، ومن أنت حتى تأمر السجن بأن يأتي لخدمتك ويسمع طلبك؟، وكأن عمله ليس مراقبة السجن والتأكد من سلامة المساجين! وفتح السجن الباب، ويومها لم يكن حظنا هو الأفضل، ولكنه لم يكن الأسوأ كذلك، كان سيئاً؛ لأن المساعد نمر لم يكن هو المناوب يومها، بل كان بو حيدر هو المساعد المناوب. وقد أخذ بو حيدر بكبله الرباعيّ وصار يضرب الشاويش ويشتم بكافة الشتائم ويقول:

لشو معينك شاويش أنت يا أخو الشرم*** عشان تبعصلي مزاجي كلما آجى على بالك.

وأخبره الشاويش وهو يتلقى الضربات بالكبل يمنة ويسرة بأن
العسكريّ الإدليبيّ هو من فعل ذلك، وعندها تحوّل كل الضرب إلى
ذلك العسكريّ، وبعد أن انتهى من ضربه قال له العسكريّ الإدليبيّ:
سيدي كل هالشي ما كان صار لولا هاد الشب، وأشار إليّ بأصبعه!
فأية وقاحة هذه؛ تفكر في ضرر الآخرين وأنت تتعرض لكل أنواع
التعذيب، وأيّ بلاء هذا الذي نزل علينا!

أخرجنا المساعد بو حيدر خارج المهجع، وأمرنا بخلع ثيابنا، ثم
نادى أحد عمال السخرة وأمره برشنا بالماء من صنبور الفيحة، وهو
صنبور ماء الشرب، ومركز هذه المياه هو نبع الفيحة، وتمتاز هذه المياه
بشدة برودتها كونها مياه ينبوعيه، حيث يخرج الماء منه باردًا جدًّا، ولك
أن تتخيل ذلك مع برد ليالي كانون.

كان شاب السخرة من الميدان، وهو أحد المتهمين بالمظاهرات
مثلنا، فأحضر إبريقًا من الماء، وقال لي: نم على الأرض، قالها بلهجة
هادئة والدمعة تترقرق على خده، فأحسست به، وعلمت أنه يفعلها
رغمًا عنه.. لم أكن أعرف ذلك الشاب من قبل، ولم يكن معي في نفس
المهجع، ولكن نظرته كانت كافية لتوصل إليّ مشاعر ندمه بما سيفعل
بي؛ وبدأ يصب الماء البارد عليّ، وللوهلة الأولى وباللاشعور قفزت في

الهواء من شدة برودة الماء، فلم أكن يوماً من محبي الماء البارد، حتى في الصيف فإني أفضل الاستحمام بالماء الدافئ. وبعد أن سكب مرة أخرى أُصبت بالرعاش، وعندها همس في أذني وقال لي بلهجته الميدانية:

ببوس إيدك ما تتحرك، والله هلاً بيسلخ جلدك عن عظمك. وحاولت أن أكتم الشعور بالبرد الذي سيطر عليّ، وأسنانني تكاد تتحطم من شدة الارتجاف. وكان أن سكب قُرابة أربعة أباريق، وكان ينتظر من المساعد أن يقول له كفى، لكن المساعد تقدم إليه قائلاً: هاتلي هلنبريش، فغمزني شاب السخرة وأشار برأسه أن أقف بجهة الجدار، ثم وقفت وجسمي يرتعش ارتعاشاً، وأسنانني تضرب ببعضها كصوت نقار الخشب!

وأخذ بو حيدر نبريش الماء وصار يرش العسكريّ به من مسافة بعيدة، وهو للصراحة أشد وجعاً وبرداً من سكب الماء عن قرب وبطريقة مباشرة.

وبعد قُرابة نصف الساعة دخلنا المهجع، فنظر الشاويش إليّ ولامني على كوني جزءاً من السبب، فقال لي معاتباً:

لو سكتت وخليته نايماً ما كنا كلنا تعاقبنا مشانكم. هي أكلنا عقوبة بسببكم.

وقد أخذ العسكريّ الإدليّ إلى التحقيق ثلاث مرات، وفي كل مرة كان المحقق يسلخ جلده، ويطلب منه الاعتراف بأنه حاول الانشقاق، وبأن عليه الاعتراف بكل شخص حاول مساعدته في ذلك، وكانت أسئلته تتمحور حول عناصر مضمونها هو:

من المحرض؟

من الممول؟

من زعيم التنظيم؟

وفي النهاية اعترف بأن والده هو من حرّضه على ذلك.

وللأمانة فقد كان غالبية الناس يعترفون بأشياء لم يفعلوها، ثم يذكرون أسماء عشوائية؛ أول اسم يخطر ببالك مع أول اسم عائلة يخطر ببالك، تدججهما معاً ثم تقول بأن ذلك الاسم هو من حرّض على ذلك. واعتقال هذا الشاب كان مضحكاً؛ فقد كان يخدم في حلب، فسأل الضابط المسؤول عنه: لماذا انشقّ بعض العناصر من الكتيبة؟، ولم يعلم الضابط كيف يرد على سؤاله، وحصل أن الضابط شك بأن هذا العسكريّ يحاول أن يوقعه كونه ابن إدلب إحدى أكبر معاقل الثورة، فقام الضابط بإعطائه ظرفاً، وطلب منه أن يوصله في مهمة رسمية إلى فرع الأمن العسكريّ في دمشق وتحديدًا الفرع 227، وقد تبين لاحقاً أن

الظرف كان يحتوي على طلب من الضابط المسؤول عنه بالتحقيق معه، وأن العسكريّ قد سأل الضابط: لماذا انشق بعض العناصر، ولم يقل: لماذا «فرّ» بعض العناصر من الكتيبة!

تخيل أن هذا العسكريّ قد حمل كتاباً فيه هلاكه، وسافر به من حلب إلى دمشق؛ ولذلك كان دائماً ما يقول تحت التحقيق إنه جاء للفرع بمهمة رسمية، وليس للانشقاق!

وعلمنا أن هذا الشاب لم يكن له أيّ أصدقاء، فقد كان يعمل في رعي الأغنام مع والده. أما والدته فقد توفيت وهو صغير السن، وأنه ببساطة لا يعرف إلا والده، والغنم التي رعاها، والضابط المشرف عليه في الكتيبة، فقلنا في أنفسنا: الحمد لله أنه لم يعرف أحداً، وإلا كان قد ألصق بكل من يعرفه كافة أنواع التهم.

وكان المحقق نفسه يعرف أنها أسماء مختلقة، وأن المتهم بريء، ولكن كان المحققين يتباهون فيما بينهم بأنهم يستطيعون أن يجعلوا المتهم يعترف بأي شيء يريدون، وذلك كله كان يعتمد على سرعة المتهم في الاعتراف بما يريدون؛ فإما أن تعترف بكل شيء يتهمك المحقق به في نصف ساعة، أو خلال يومين، والاختلاف في المدة سببه هو معرفة كم يستغرق المتهم من الوقت للاعتراف بأي تهمة تخطر على بال المحقق.

وأذكر أنه في إحدى المرات، اتهم المحقق أحد المتظاهرين معنا بمحاولة الانشقاق، وبعد التعذيب اعترف ذلك الشخص بالتهمة، ثم تذكر المحقق أن المتهم مدنيّ وليس عسكرياً، فانهاى عليه بالضرب وقال له:

كيف بدك تنشق وانت مدنيّ منك عسكري؟!!

وأجاب المعتقل بأنه كان يريد الانشقاق عندما يلتحق بالخدمة العسكرية!

كان هذا الشاب الإدلبّيّ بلاء علينا فوق بلائنا بالسجن، فكان يتفاداه الجميع في الطعام والحديث والنوم ولم يكن محدود العقل أو ذا قدرات أقل من غيره، ولكنه لم يعرف في الحياة إلا والده والغنم وكتيبته العسكرية والمهجع ج3، وعلمت لاحقاً أنه قد تم تحويله إلى الفرع 215، وهو فرع أمن عسكريّ وكان أسوأ فرع أمن عسكريّ سمعته في التعذيب والقتل تحت التعذيب.

* * *

بَسَامُ ابْنُ بَابَا عَمْرٍ

بسام كان عسكريًا ضحوكًا مبتسمًا طوال الوقت، طويل القامة نحيل البنيان، حليق الرأس.. كان عسكريًا بمعنى الكلمة.

وكان قد خسر معلمه «الضابط المسؤول عنه» أحد أقاربه في حمص على أحد الحواجز الطيارة على حد قوله، وتبين فيما بعد أن قريب معلمه كان مجرمًا أكثر منه، وأنه تعرض للقتل على يد أحد زملائه الذين انشقوا ورفضوا إلا أن يقتلوه قبل مغادرتهم؛ لما كان فيه من شرّ وبلاء على أهالي المنطقة.

وكان أن حقد معلم بسام على كل العناصر من درعا وحمص في ذلك الوقت، فكان يرميهم في الصفوف الأولى، ويطلب منهم إطلاق النار بشكل مباشر على المتظاهرين. وفي إحدى المرات رفض بسام إطلاق النار، فقام معلمه بتحويله إلى التحقيق، والتحقيق حوّلته إلى فرع الأمن العسكري.

كان بسام جندي مشاة من عائلة فقيرة، ولم يكن له وساطة ولا معارف، وكان يعلم علم اليقين أن اعترافه بأيّ شيء يعني هلاكه.

وكان بسام سرّ ابتسامتنا في المجمع، وفي كل مرة يخرج إلى التحقيق كان يقول:

شباب، يا برج معترف اليوم إن شاء الله يا برج منتصر، ادعولي
إني أكون معترف، والله ما بدي يّس رأسي وأكل قتل عن الكتيبة كلها.
كان يعرف أن الانتصار هو عدم الاعتراف للمحقق بالتهم الموجهة
إليه، وأن ذلك يعني ساعات أكثر من التعذيب والضرب، وأن الراحة
تكن في الإعراف بذنوب وأفعال لم ترتكبها فقط لتتجنب التعذيب.

وقد رفض بسام الاعتراف بأي تهمة خلال أول مرتين عرض فيهما
على التحقيق، وفي المرة الثالثة جاءنا محقق غاضب، رفس باب الزنانة
ودخل، وشحط بسام من أذنه قائلاً له:

اليوم متفضيلك، ما عندي غيرك يا أخو المن***.

وعندها قال بسام: سيدي وين آخذني؟

فصر به المحقق بالبورى الأخضر على رأسه أمانا، وصرخ في وجهه
قائلاً:

ع الموت، اليوم يا بتموت يا بتعترف..

وقام المحقق بالتحقيق مع بسام في الغرفة المجاورة للمجمع؛ كي
نسمع ماذا يحل بمن يرفض الاعتراف، وهي رسالة حاولوا أن يوصلوها

لنا كثيراً عبر تعذيب كل من يرفض الاعتراف بجانب المهجع، وقد كانت الرسالة تصل إلينا دائماً..

لقد كان أكثر من أربعة أصوات تتناوب على سب بسام وشتم أهله وتعذيبه. وبعد أربع ساعات كاملة سمعنا صوت بسام يقول: بعترف يا سيدي خلص بعترف ببلي بدك ياه.

فعم السكوت لبضع دقائق، ثم سمعنا صوت تكسير وتبين لاحقاً أن المحقق كسر الكرسي وهو يضرب بساماً.

وقد مر بعدها بضع دقائق، وفتح الباب، ثم دخل جماعة السخرة يحملون بساماً، ووضعوه على الأرض. وظننا أنه مات، فعم السكوت الزنزانة. ثم ما لبث السكوت أن تحول إلى بكاء، أي منظر هذا، يبدو بأنهم صعقوه بالكهرباء حتى مات!

وبعد قرابة الخمس دقائق، حرك بسام رأسه وقال:

أخوات هالمن*** ما قدروا يسحبوا مني أيّ اعتراف، ثم جهر بالضحك فضحكنا جميعاً لضحكته، ضحك بسام قليلاً ثم أغمي عليه لبضع دقائق.

وضحكة بسام كانت مميزة جداً، كانت عالية الصوت، وأحياناً مبالغاً فيها، حتى أن بعضنا كان يغتاض من ضحكاته لمكان إفراطه في

الضحك أحياناً، ونحن في حال يُبكي عليه، ولكن في تلك المرة ضحكنا كلنا لضحكته؛ فالحمد لله أنه لا يزال يتنفس، وبقاؤه كان يعني بقاء البسمة لنا جميعاً.

وأراد بسام أن يروي لنا انتصاره على المحقق في تلك اللحظة، فكان يقول كلمة، ثم يضحك، ثم يبكي من شدة الألم الذي نزل بكل خلية في جسده النحيل، لم يستطع أن ينهي جملة واحدة. روى لنا كيف أن ملامح المحقق تغيرت بعد أن أخبره بسام بأنه سيعترف، وعندها توقفوا عن تعذيبه، وأحضروا له كوباً من الماء، ولم يستطع بسام حمل كوب الماء حينها؛ فالكهرباء التي تعرض لها كانت كفيلة بقتل فيل، ولكنها لم تكن كافية لقتل عزيزته، إنها عزيزة أهل بابا عمر أول مدينة دافعت عن نفسها ضد الجيش الغاشم، وأول مدينة أعلنت إخلاء منطقتها من الجيش.

وقد طلب المحقق من بسام أن يوقع على اعترافات بما لم يعمل بها، أو تهم بما لم يقارفه، وهي اعترافات جاهزة من المحقق أراد بها أن يكسر عزيزة بسام بعد أن رفض الاعتراف بأي تهمة خلال المرتين الأوليين من التحقيق، فكان أن أعد له المحقق في المرحلة الثالثة اعترافات جاهزة من تأليفه، وما على بسام إلا أن يعترف بها أو أن يوقع عليها!

وعلى قول بسام فإنه قد نظر في وجه المحقق فرأى نظرات فرح ونصر لم يستطع بسام تحملها، وإنه رفض لتلك الفرحة أن تتم، لقد

كانت فرحة المحقق هي في كسر عزيمة بسام، وإرغامه على التوقيع على اعترافات مسبقة لا علاقة لها بالتهم، وليست أكثر من مجرد اتهامات خطط لها المحقق لكسر عزيمة بسام لا أكثر، فرفض بسام أن تدوم فرحة المحقق، وعندها قال للمحقق:

سيدي، أنا ما عملت أي شيء، وأنا قلت بدي اعترف لحتى التعذيب يوقف مو أكثر!

وقد كانت جملته هذه كافية لأن تقلب الطاولة، وتعكس الموقف، وبأن يعلن هو انتصاراً على المحقق، ويعطي المحقق شعوراً بالضعف من جديد، وببساطة كان كلامه إخباراً للمحقق بأن كل القوة التي استعملها ليست كافية لأن تُفلّ من عزيمة بسام؛ عزيمة ابن بابا عمر؛ سر ابتسامتنا في المهجع ج3.

* * *

العسكريّ جمال ابن المزيّرب

كان عسكريّاً برتبة مساعد، تطوع في الجيش قبل أن ينهي شهادته الثانوية، حصل على البكالوريا ثم درس الحقوق بعدها وهو في الجيش، ثم درس الماجستير بعد ذلك، وكان في آخر فصل له، ثم إنه اعتقل.

كان يحفظ من الأدب والشعر ما لا يحفظه أساتذة اللغة العربية، وكان يمجّد مصطفى طلاس كلما سنحت له الفرصة، وقد كان قدوة له.

كان الشاب متكلماً ومثقفاً، يحب أغاني الطرب، يعشق وديع الصافي وصباح فخري، اقترح عليّ أن أسمع لأحمد الأزرق، وأخبرني بأنه لا يفوت حفلة لأحمد الأزرق.

كنا نتجادل كثيراً في السياسية، وفي شرعية بيت الأسد، وفي شرعية الدولة، وتصرفات الجيش. كان يؤمن بهم، حتى أنه غير طائفته للعلوية، وأخبرني أن أهله عندما علموا بالموضوع تبرؤوا منه، وأن الوحيد الذي بقي يكلمه هو والدته. ومنذ ذلك الحين بحسب قوله لم يعد الشاي مشروبه المفضل، بل صارت المتّة في النهار، والعرق في الليل. كان مثلاً على الشخص الذي غير جلده وتحول إلى أحد منهم (عناصر الأمن والسلك)، وكان يمدح سيده كلما حانت له الفرصة،

وبأن معلمه (الضابط المسؤول عنه) هو من رباه أكثر من والده. كان يروي لي كيف أنه عندما يعلم معلمه سيتكلم مع قائد اللواء ليخرجه من السجن كما تخرج الشعرة من العجين.

وخطته كانت تقضي بأن ينهي دراسة الماجستير، ويقدم على طلب نقل ليصبح مدير ناحية في إحدى النواحي القريبة من العاصمة دمشق، فيكوّن أسرة، ويسهر مع رفاقه في السلك كل خميس.

لم يكن جمال متهماً بشيء، وقد كانوا ببساطة ثمانية عساكر، وفي أحد الاشتباكات انشق خمسة عناصر منهم، وبقي هو واثنان من رفاقه؛ عسكريّ من الطائفة الإسماعيلية، وعسكريّ من الطائفة العلوية. وقد دُعي بعد ذلك ثلاثتهم إلى الفرع 227 من أجل التحقيق معهم فيما حصل. وظل حبيس الزنزانة معنا دون تحقيق قُرابة تسعة وثلاثين يوماً، وفي اليوم التاسع والثلاثين، نادى السجن اسمي، فطار من الفرحة، وشكرني على كوني صديقاً وأعطاني رقم هاتفه، وقال:

إذا لزمك شي حاكيني، وإن شاء الله ما بخيبك.. ثم حمل أغراضه وذهب إلى الإفراج «أو ذلك ما كان يظن»،

وبعد قُرابة الساعتين، رماه المساعد معنا مرة أخرى، فعاد مكسوراً منهكاً من التعذيب، لا يستطيع الوقوف أو حتى الجلوس. لقد عذبه

بالكهرباء والكرسيّ الألمانيّ فحصل تغيير جوهريّ لملامح وجهه، وصار البون كبيراً بينه قبل التحقيق وبعده؛ فقبل التحقيق وعندما نادوا اسمه كانت الفرحة لا تسعه، كان يؤمن بهم أبعد الإيمان، وبعد التحقيق ذهبت عنه الابتسامة واستبدلت بعبوس وانكسار؛ لقد عاد مطأطيّ الرأس ذليلاً لا يقوى على الحراك، وأمر المحقق الشاويش أن يضعه حيث ينتمي؛ بجانب الحمام.

حاولت أن أواسيه، لم أستطع أن أقول له إن من عذبه هو النظام؛ النظام الذي طالما آمن به جمال، ودافع عنه، وخسر أهله وزملاء دراسته وأصدقاء طفولته من أجله.

لم يستطع جمال أن ينام تلك الليلة مستلقياً فحاول النوم متكئاً على الحائط، وكان كلما غفلت عيناه يستيقظ مفزوعاً، ويشهق بصوت عالٍ فزعاً، لم ينسَ بشاعتهم حتى وهو نائم، وفقد كل إيمانه بهم... لم استطع إلا أن أواسيه، صحيح إننا لم نتفق على حب النظام، ولكن لم استطع إلا أن أحاول جبر خاطره كسلوك إنسانيّ، أو حتى كواجب أخلاقيّ.

وطلب مني أن أكلمه بعد أن أخرج من السجن، فإن كان هاتفه مغلقاً؛ فذلك يعني أنه سيكون في صيدنايا.

وبعد أن خرجت من السجن بأسابيع، اتصلت به، وكان رقمه مغلقاً
أو خارج نطاق التغطية. وحاولت الاتصال به مرة أخرى بعد أسبوع،
وكانت النتيجة نفسها، مما أوحى إليّ بأنه تحوّل إلى سجن صيدنايا، حيث
لا يخرج إلا من رحم ربي.

* * *

المنتصر ابن مدينة الشجرة

هو شابٌ بدويٌّ أسمر الوجه عريض المنكبين، فيه كل صفات البداوة؛ من مثل الشهامة والمروءة وحدة البصر، لديه ما يزيد عن عشرة إخوة «لا أذكر الرقم بالتحديد»، وقد كان والده عصبيًّا لا يتردد في استخدام العصا أو السوط معهم، وأخبرني يومًا كيف أن ذلك هوّن عليه من العقوبات في العسكرية، حيث جلدات سوط والده جعلت جسده منيعًا عن التعذيب.

كان منتصر عسكريًّا، ويخدم في منطقة جبال الزبداني في فوج الـ م.ط.

كان يروي لنا قصصًا، ومنها أنه عندما كانت تقوم «إسرائيل» بقصف مواقع في سوريا، وكان بعض العناصر يحاول أن يحرك مدفعية الـ م.ط للرد على الهجوم؛ كان الضباط ينهونهم عن ذلك، ويحيلون كل من يستفسر عن السبب إلى التحقيق!

وقد كان منتصر أفضل رام في الكتيبة، كما كان أفضل رياضيًّا فيها أيضًا. ومن المعلوم في خدمة العلم في سوريا بأن أفضل الرماة أو الرياضيين تكون لهم حصّة وفيرة من الجوائز والهدايا ومحبة الضباط

«معلّمهم»؛ حيث كانت تقام عادة بعض المناورات بحضور قائد اللواء، ويقوم فيها اللواء بتكريم الأوائل في الرياضة والرماية. وقد كان لمنتصر الحصّة الوفيرة من تلك الجوائز.

وقد تناقشت مع منتصر حول السبب الذي جعل قدره معنا في هذا المهجع ج 3، وعادة ما يتردد العسكريون في الإجابة على مثل ذلك السؤال؛ لأنهم إن أقرّوا بما فعلوا وحدث أن وشى أحد بهم؛ سيكونون بذلك قد أثبتوا التهمة على أنفسهم. ومع ذلك فلم يمانع منتصر من الحديث عن ذلك، فأخبرني بأن أحد زملائه في الكتيبة من الطائفة العلويّة كان يغار منه؛ لكون منتصر له الحظ الأوفر من المدح من معلمه في كل المناسبات، حيث كان معلمه يقدمه دائماً للضباط بفخر قائلاً:

هذا منتصر أمهر من استخدم الكلاشنكوف في الكتيبة.

فأصبح زميل منتصر يفترى عليه بتهم لا علاقة لمنتصر بها؛ وذلك من مثل:

منتصر لا يظهر احتراماً لبدلته العسكرية،

المزيريب تخرج مظاهرات أسبوعية، ومنتصر يبدو متعاطفاً معهم،

منتصر يصلي أحياناً في السرّ..

إلى أن كانت الأخيرة مسماراً في نعش منتصر، كان ذلك في محاولة للجيش لتفريق مظاهرة في منطقة الزبداني لم يطلق منتصر فيها النار على المتظاهرين، فعندها وشى به زميله. وقد طلبه الضابط للتحقيق وسأله لماذا لم تطلق النار؟، وفتشوا عدته فوجدوا ذخيرته كاملة مما يثبت عليه افتراءهم «تهمته». وكون منتصر لم يطلق النار، جعله في مهب الريح، وجعل تطاولهم عليه أكبر، فأن يمتنع منتصر عن إطلاق النار على المدنيين العزل يعني أنه يرفض الأمر العسكري.. فأَيّ ظلم وفُجر هذا؛ فمجرد أن تكون بريئاً من القتل هو تهمة كبيرة عندهم!

وقال له معلمه بأنه قد خاب ظنه فيه، وقام بربطه في ساحة الاجتماع الصباحي، وطلب الضابط من كل العساكر الموجودين أن يعذبوه. كانت غاية الضابط أن يرسل رسالة لجميع العساكر فحواها أن من يرفض الأوامر بالقتل فسيكون مصيره كمصير منتصر؛ منتصر الذي كان مدللاً من ضابطه صار اليوم مثلاً يعتبر به في الكتيبة لكل من يرفض إطلاق النار.

وبعد ثلاثة أيام من التعذيب بكافة أنواع الوسائل والأدوات الموجودة في الكتيبة، تم تحويل منتصر إلى فرع الأمن العسكري 227. كان وجهه مغطى بالدماء اليابسة، ساعدته في تنظيف جراحه، لم يكن لدينا شاش أو معقم، ولكن عندما يدخل سجين جديد فإنه يستطيع أن

يطلب من أحد العناصر غيارات داخلية قبل تسليم الحوائج الشخصية عند قسم الأمانات ولكن بثلاثة أضعاف السعر، أخذت منه شيئاً «شباحاً أو قميصاً داخلياً» من الذين اشتراهم من المساعد، ثم قمت بتمزيقه إلى عدة أجزاء، وجعلنا نبللها بالماء ونمسح الدم مسحاً خفيفاً.

وفي إحدى المرات حدثت ملاسنة أخرى بيني وبين العسكريّ الإدلبّي، فقام بشتّم أمي، كنت أعلم أن الجدال سينزل بي أشد العقوبات، والأصعب من ذلك أن المساعد المناوب يومها كان المساعد نمر وهو أشد المساعدين عقاباً وفتكاً بالمساجين، مما يعني أن أية عقوبة ستكون اليوم أشبه بالإعدام.

لم أتحمل الشتيمة يومها فقامت بضرب العسكريّ الإدلبّي على وجهه، فإذ به يجهر بالبكاء، وكان يرفع صوته بالبكاء حتى يتأكد أن المساعد في الخارج سيسمعه. وحاول البعض أن يسكته بالكلام، ويحذره من أنه سيضع الجميع تحت العقوبة، وذكره البعض بأن المساعد المناوب في هذه الليلة هو المساعد نمر، ولكن ذلك لم يزدّه إلا صراخاً.

وفتح المساعد نمر الباب، ثم قام بضرب ورفس الجميع. كان غاضباً للغاية، وكان أشبه شيء بالثور الهائج يبطش يمنةً ويسرةً. ثم إنه سأل عن مسبب الصراخ فأشار الشاويش إلى العسكريّ الإدلبّي، فنظر المساعد نمر إلى العسكريّ الإدلبّي وقال:

أنا ما عندي شغله وعمله غيرك يا أخو المن***، بدّي أسلخ جلدك اليوم.

فأشار العسكريّ الإدلبّيّ إليّ وقال بأنني كنت السبب في صراخه. وللأمانة فقد كان كل المعتقلين والسجانين يعرفون العسكريّ الإدلبّيّ لكثرة مشاكله. وبعدها نظر المساعد نمر وقال:

الحقني إنت ويّاه

ونظرت للعسكريّ الإدلبّيّ بعدها وكان ينظر إليّ مبتسماً ويقول: هي رح خليك تتعاقب معي.

وصاح منتصر بعدها قائلاً بلهجته الحورانية الممزوجة بالبدوية:
سيدي هاظ الشب ما إلو دخل، آني تمشكلت ويّاه والحز جاعد يتبلى
ع الناس.

كنت مصدوماً للوهلة الأولى؛ فأية فعلة وأية شهامة هذه يا منتصر!
فهمس إليّ قائلاً:

آني متعودع الظرب يا ياسر اليوم آني عنك.
لا زلت أذكر ذلك الموقف وكأنه يحدث الآن. شهامة منتصر كانت
أكبر من أن تنسى.

وقد دامت صداقتنا إلى أن افترقنا.

لم يكن لديه هاتف محمول ولا لدى أيّ شخص من عائلته، فأعطيته رقم هاتفي المحمول ورقم والدي، وكنت أطلب منه كل عدة أيام أن يكرر لي رقمي ورقم والدي؛ حتى يحفظهما فيتمكن من التواصل معي بعد الخروج.

ولما خرجت من السجن لم أسمع عنه أيّ خبر؛ فقد كان من الذين تم تحويلهم إلى سجن صيدنايا.

فأسأل الله لمنتصر الثبات والأجر.

* * *

أبو صدام ابن نوى

هو شاب طويل القامة عريض الأكتاف شاحب الوجه شديد النظرة، لا يعرف المزاح، كنا نقول عنه: « وجهه ما يبضحك للرغيف السخن »؛ وذلك لقلّة ابتسامته وعظيم جدّيته. وهو بدويّ من البدو الذين يعيشون حول منطقة نوى. وقد رعى الغنم حتى صار في الثامنة عشرة، ثم التحق بالخدمة العسكرية. كان من العساكر الذين دخلوا السجن معي في نفس اليوم، لكنه لفت نظري للمرة الأولى عندما خرجنا للتصوير؛ حيث إنه لم يصرخ عندما ضربه المساعد، وهو شيء كان يحدثنا عنه وينبهنا عليه جميع المساجين؛ أن نصرخ إذا ما تعرضنا للتعذيب، فإذا حاول أيّ شخص في هذا السجن ضربك، فعليك بالصراخ، وإن لم تكن الضربة قوية؛ عليك بإظهار التوجّع وإن لم يكن بك وجع في حقيقة الأمر، عليك أن تظهر لهم ضعفك، وأن تشعرهم أنهم أقوىاء، وأنتك ضعيف.

وقد رفض أبو صدام إظهار الضعف لهم فنال الكثير من الضرب، وُضرب ضرباً لو تعرض له فيل لوقع وانهار.

سألت أبا صدام عن تهمته فأجاب بسرعة: بيع دبابة للسلطات اللبنانية.

قلت له كيف هيك؟

وأجاب:

أنا سائق دبابة، وأخدم في إحدى المناطق الحدودية، وفي إحدى المرات كنت أقود الدبابة وبدلاً من القيادة للأمام أخطأت في المحرك وسارت الدبابة للخلف، أنا أخدم فوق التلة الحدودية ولم أستطع إعادة التحكم في الدبابة وهي تنزل التلة بسرعة.

وبعد أن تمكنت من إيقاف الدبابة خرجت منها لأرى أين أنا، فإذا بخمسة عساكر يصوبون بنادقهم عليّ، فقلت لهم الحمد لله سليمة، فصدقني زملائي في الكتيبة وأعادوا الدبابة معي إلى مكانها، ولكن الضابط المسؤول لم يصدقني، فأحالني إلى التحقيق وها أنا هنا.

عُذّب أبو صدام مرة على باب المهجع وهو أمر كان يعتاد بعض المحققين أن يفعلوه أن يعذبوا بعضنا أمام باب المهجع ليرسلوا رسالتهم بأن مصير أيّ منا كمصير هذا الشخص إن أصررنا على عدم الاعتراف. أحياناً كنت أتمنى أن تكون الأمور بهذه البساطة، فالاعتراف بما فعله المتهم هو شيء لا عار فيه، ولكن الاعتراف بما يريد المحقق شيء

آخر، المحقق يريد منا أن نعتزف بأننا خونة وعملاء إرهابيون، وبأن قطر كانت تمولنا بألاف الدولارات، فكيف نخرب هذه البلد الجميلة التي بناها حافظ الأسد بعد أن كانت خراباً! هذا ما كانوا يريدون منا أن نعتزف به، بينما نحن نصرّ على أن سوريا كانت بلداً متحضراً متقدماً ديمقراطياً، عرف الديمقراطية والتعددية الحزبية في عشرينيات القرن الماضي، وعرفت دستور عام 1950م الذي عُرف بأنه أحد أفضل الدساتير في تلك الحقبة الزمنية، والذي نتمنى أن يرجع اليوم.. إلى أن أتى حافظ الأسد وأقام «الحركة التصحيحية» واستعان بـ «ألويس برونر» المشرف العام على معسكر دارنسي للاعتقال، وأسّسا معاً دولة بوليسية تعذب الشعب بأبشع الصور ولأتفه الأسباب.

كان أبو صدام يُعذب على باب المهجع، وكان المحقق يسأله سؤالاً واحداً:

شو عملت بحق الدبابي يا خاين يا عميل؟

فكان أبو صدام يرد والسياط تنهال عليه:

أي دبابة؟

فيرد المحقق الدبابة: يلي بعثها للطنطانات بلبنان.

ليجيّب أبو صدام:

ما بعث دبابة.

وبعد ساعات من الضرب أجاب أبو صدام جوابًا مختلفًا، فكان جوابه:

اشترت بحقها نابلسية لأنني كنت ميت جوع ولا ما بدمك ياني أوكل!
وتحولت لحظات الصمت في الزنزانة إلى ضحك هستيري؛ فأبو صدام اليوم أهان المحقق، فالمحقق يحاول انتزاع اعترافًا، بالقوة وأبو صدام يفكر بصحن كنافه نابلسية، كان ذلك كل ما استطاع المحقق نزعه من أبي صدام؛ أنه باع بلده بصحن نابلسية!

لم يكن أبو صدام متعلمًا، ولكنه أدرك في تلك اللحظة أن صحن النابلسية أهم من الدبابة التي كان يقودها لحماية هذه العصابة. كان صحن النابلسية ذاك في تلك اللحظة أفضل عنده من جيش بلاده كاملاً؛ الجيش الذي يلفق له التهم وينزل به أشد العقاب على شيء لم يرتكبه.

لم يكن أبو صدام متعلمًا، ولكن جوابه كان أفصح الأجوبة.
مر على المهجع ج3 في الفترة التي دخلت فيها ما يزيد عن الخمسمئة معتقل ولم نعرف أحداً أشد بأساً من أبي صدام.

المتظاهرون

هم كل شخص تم اعتقاله في مظاهرة ضد النظام، أو له صلة بأي مظاهرة خرجت ضد النظام؛ من التنسيق إلى الخروج والمشاركة أو حتى المرور بجانب مظاهرة، وصولاً إلى الإعجاب بصورة المظاهرة على الفيس بوك، فكل هذا كان يُعدُّ من التهم التي تصب في قسم التظاهر. ليس هذا وحسب؛ بل حتى مشاهدة قناة الجزيرة كانت سبباً أكثر من كافٍ لِيُتهم الشخص بالتظاهر أو التعاطف مع المتظاهرين.

وأذكر أن أحد المعتقلين معنا كانت تهمته أن قناة الجزيرة كانت القناة رقم واحد على الرسيفر الخاص به، فكان مجرد حصول ذلك سبباً كافياً ليعتقلوه!

وقد تم اعتقال فئة كبيرة من المتظاهرين لأن أحداً كتب فيهم تقريراً بأنهم خرجوا في مظاهرة دون تقديم أي دليل على ذلك أو إثبات. وقد كان ذلك شائعاً عند أصحاب الثارات والديون؛ يقوم شخص بكتابة تقرير في أحد الأشخاص لوجود ثأر بينهما، أو لدين عليه لم يقضه، أو حتى العكس. وكان مجرد حصول هذا التقرير سبباً كافياً لتخرج دورية مدهامة إلى منزل المتهم فيتم اعتقاله بأبشع الطرق؛ فقانون فروع الأمن

كان فحواه: الكل متهم حتى يثبت العكس، والإثبات هو الاعتراف تحت التعذيب.

وقد كان التظاهر هو الجرم الشائع والمتعارف عليه لكل المدنيين، والروتين اليومي للمحققين، حيث يتم التحقيق مع المتظاهرين غالبًا لثلاث أو أربع مرات، وفي كل مرة يتراوح التحقيق ما بين نصف الساعة والساعتين، ونصف الساعة هذه غالبًا كانت كافية لأن يعترف فيها المتظاهر بكل شيء يتهمة به المحقق، ثم يطلب المحقق من المعتقل أن يقوم بالبصم على اعترافاته. وهو بالطبع تحقيق لا يخلو من بعض الشوائم والضرب والجلد، وكان هذا النوع من التحقيق يعطي المحققين نوعًا من الشعور بالعظمة، وكان المعتقل البريء يعترف بكل تهمة يوجهها إليه المحقق دون تردد، وغالبًا ما كان ينتهي هذا التحقيق بضربة على الرقبة يقول فيها المحقق:

مَعاد تعيدها، رَح كَتَبَك تعهّد.

ويرد المعتقل:

التوبة يا سيدي!

وكان جميع المعتقلين زوراء، والمتهمين منهم بالتظاهر خاصة يخضعون لنفس الإجراءات، والغالب الأعمّ منهم يعتقلون دون أي

سبب مطلقاً، أو بأسباب تفتقر إلى الحد الأدنى من المنطقيّة، وعلى سبيل الإيضاح أذكر منها:

لم يملأ عناصر الأمن الباص بالمعتقلين، فيقومون بالمرور على أحد الأحياء التي تخرج منها المظاهرات، ثم يقتلون كل شخص تراه أعينهم إلى أن يكتمل العدد المطلوب ويمتلئ الباص بالمعتقلين.

في يوم الجمعة وقد خرجت مظاهرة في إحدى المناطق، وخاف عناصر الأمن من الذهاب إلى تلك المنطقة، فيقوم عناصر الأمن بالذهاب إلى أيّة منطقة قريبة خرجت منها مظاهرة في السابق، ثم يقومون باعتقال كل من تقع أعينهم عليه.

مرور باص أمن على منطقة فيها سوق شعبيّ كجسر الثورة أو سوق الحراميّة، فينزل عناصر الأمن ويهجمون على الناس بتهمة التجمع، ثم يقومون باعتقال كل من تقع أيديهم عليه.

والتحقيق مع هؤلاء الأشخاص كان له نفس النمط، وكانت الإجراءات كالتالي:

تحقيق أول يستمع فيه المحقق إلى اعترافات المعتقل، وغالباً ما يكون التحقيق الأول سريعاً، وفيه يقوم المحقق بسؤال المعتقل بعض الأسئلة:

شو اسمك، شو بتشتغل، وين بتشتغل، وليش جابوك لهون؟

بعدها يقوم المحقق بطلب دراسة أمنية عن المعتقل في المنطقة التي يسكن فيها، وفي المنطقة التي يعمل فيها، وبناء على ذلك يُحدد مجرى التحقيق الثاني.

أما في التحقيق الثاني، فتتم مطابقة أقوال المعتقل وذلك بمطابقة الدراسة الأمنية المقدّمة مع الاعترافات التي اعترف بها المعتقل في التحقيق الأول، فإذا كان المعتقل يملك صيتاً محبباً للقيادة، ويملك صورة للرئيس في عمله وبيته؛ فإن المحقق يقوم بمحاولة إصاق أي تهمة بهذا الشخص البريء الذي اعتُقل عشوائياً، ويقوم المعتقل غالباً بالموافقة على كل التهم الملفقة له، ثم يصمم عليها دون مناقشة ويخرج إما بعد خمسة وأربعين يوماً إن لم يكن متعلماً، أو بعد ستين يوماً إن كان متعلماً.

أما إذا لم تتطابق اعترافات المعتقل مع الدراسة الأمنية وتبين أن المعتقل لا يمدح الدولة كثيراً، فعندها يتحول التحقيق إلى تعذيب لمدة قد تصل إلى ساعتين، وبناء على ذلك يتحدد مجرى التحقيق الثالث. فإذا اعترف المعتقل بالتظاهر فإنه كان يعذب لمدة تتراوح بين ساعتين وست ساعات، ويعتمد ذلك على مزاج المحقق ومدى تعطشه للدم، أما إذا اعترف المعتقل بالتنسيق فهنا قد يصل التعذيب إلى يوم كامل من الشبح والجلد لعدة ساعات إلى أن يفارق الحياة.

وقد نصحني أغلب المعتقلين القدامى بالاعتراف بأية تهمة طالما كانت تظاهراً أو أي شيء له علاقة بالتظاهر (تظاهر، رش ماء على المتظاهرين، مشاهدة قناة الجزيرة، الإعجاب بمظاهرة على الفيس بوك).

وفي اليوم الثالث عشر من تواجدي في الزنزانة نادى المساعد أبو عمر باسمي وقال لي: روح ع المطبخ، المحقق طالبك، وقد وقد كان ذلك خبراً باعثاً على القليل من الفرح والكثير من الخوف؛ فالكثير من الخوف إنما هو من احتمال التعذيب الذي سأناله إن لم أعترف بتهمهم التي سيلصقونها بي، وأما القليل من الفرح فلأن مرحلة إخلاء السبيل تبدأ من التحقيق الأول فالثاني فالثالث فالخروج من المعتقل، طالما كانت التهمة هي مجرد التظاهر ولمرة واحدة فقط.

وقد اتجهت إلى المطبخ، فسمعت من بعيد صوتاً ينادي:

راسك ع الأرض ولك حيوان..

فأنزلت رأسي وأكملت المشي وصرت أستند بيدي على الجدار لأعرف أين أتجه. ووصلت إلى المطبخ، فوجدت بانتظاري أحد الحشاشين، فقام بوضع طماشة على عيني وأخذني باتجاه الباب الرئيس للسجن، وقبل أن نصل، طلب مني الدخول إلى الزنزانة على الجهة

اليمنى، ثم دخل المحقق بعدها وطلب من الحشاش الانصراف، وقال لي: راسك على الأرض ووجهك على الحيط يا ياسر، ففعلت ذلك. وسألني المحقق بعدها:

من وين بتعرفوا السيادة العميد يا ياسر؟
وأجبتة:

هو صديق لوالدي منذ عام 2008م، فوالدي مهندس زراعي يشرف على بعض مناحل النحل في منطقة ريف دمشق، وصادف أن العميد في إحدى المرات كان يشتري عسلًا، فساعدته والدي في انتقاء أفضل الأنواع، وأخبره كيف يكتشف إن كان العسل مغشوشًا أم لا، فبدأت المعرفة من هذا الموقف، وصار العميد يطلب من والدي أن ينتقي له العسل كلما أراد، ولكني ما لم أخبر المحقق بأن المعرفة كانت أكثر من ذلك بقليل؛ فقد كانت منفعة متبادلة؛ كان والدي يدفع ثمن العسل، وكان العميد قد اتفق صراحة مع والدي أن يطلب منه خدمة أو منفعة مقابل أن لا يدفع ثمن العسل؛ كنقل أحد معارفه الذين يخدمون في الجيش من منطقة نائية إلى منطقة قريبة، أو تعيين أحد معارفه في وظيفة حكومية.. وكلنا يعلم أن الوساطة في سوريا كانت الضامن الأول للحصول على وظيفة حكومية؛ وتكون الوظيفة من نصيب صاحب

الوساطة الأقوى أوّلاً، ثم صاحب الخبرات الأفضل في حالة تساوي قوة الوساطة.

ثم سألني المحقق بعدها بلكنته الساحلية: يعني إذا بدنا عسلات كيسين بتزبطونا يا ياسر؟

فأجبتة بسرعة: سيدي إذا ما زبطناكون مين بدنا نزبط! وردّ بعدها: والله هنت مانك هيّن يا ياسر، وين بتدرس وشو بتدرس؟

وأجبتة: طالب سنة ثانية هندسة طبية بالهمك هون بالصناعة سيدي. المحقق: ليش ما تعمل هيك يا ياسر، بدك تسقط النظام؟

أجبت: سيدي أنا ما غلطت، أنا انتقدت رئيس وزراء ما عم يشتغل شي لهالبلد، وعم يحط الرئاسة بمواقف هي غنيّة عنها.

أجاب: أي والله هالناجي عطري هو سبب البلا.

هو يعرف وأنا أعرف أن مقصدي ليس رئيس الوزراء، ولكن كوني أشرت بأصابع الاتهام إلى شخص مدنيّ؛ فذلك مسموح به، مسموح لي أن أنتقد جميع الشخصيات المدنية في سوريا، ولي كامل الحرية في ذلك، ولن يتسبب ذلك بأية مشاكل لي مع الأمن.

ثم قال: خلص روح يا ياسر.

لم يدم التحقيق أكثر من عشر دقائق، ثم عدت إلى زناتني، لا تعذيب ولا شتائم، وكان ذلك نهجاً فريداً.

عدت إلى الزنانة فالتف جميعهم حولي وبدؤوا يسألونني طبيعة التحقيق، خاصة المساجين الجدد، فأخبرتهم بأنه لم يسألني عن شيء سوى عن اسمي ودراستي.

ورد أحد المساجين قائلاً بلكنته الشامية:

هاد طبعي هي أول تحقيق، هلا استنى ليحي الدراسة الأمنية وبعدها يا بتوقع ع تعهد يا بيسلخ جلدك.

وقد امتدت الدراسة الأمنية حتى اليوم السابع والثلاثين فناداني المحقق مرة أخرى، ثم بدأ بنفس الإجراءات في نفس غرفة التحقيق:

راسك ع الأرض ووجهك ع الحيط..

وأخبرني بأنني شاركت في إحدى المظاهرات في إنخل. وجوابي كان بأن المظاهرات مرت من أمام بيتنا، وأنا كنت أقف أمام الباب، وليس في ذلك أي ذنب لي. كنت أعلم أن إنكار التهم الصحيحة فيه هلاك لي، فصبت تركيزي على أن أروي روايتي بطريقتي، لم أنكر نقدي للحكومة أو مشاركتي بالتظاهر، بل أريته جانباً آخر للقصة؛

جانبًا يصدقه ولا يشك فيه الوساطة معي، هو يحاول إرضاء سيده بأن لا ينزل بي العقاب، وأنا أحاول أن أظهره بمظهر لا يكون فيه خاسرًا. سألني عن أسماء مسلحين قد أعرفهم، أخبرته بأني لا أعلم إلا ما يردده التلفاز، فأنا شخص قليل الخلطة ولا أملك إلا القليل من الأصدقاء، وليس لي فضول بأن أزيد عدد أصدقائي.

ودام التحقيق لمدة ثلاثة أرباع الساعة، وكان معظم الأسئلة حول ما إذا كنت أعرف مسلحين أو أي تنظيم ضد الدولة في إنخل أو في يلدا حيث أسكن. وأخبرني بعدها أن الدراسة الأمنية قد أتت من يلدا ومن إنخل ومن الهمك، وجميعها تنفي ضلوعي بالتظاهر أو أي تحرك سياسي ضد الدولة، وأجبت به بأنني شخص أحب دراستي، وأنني أحاول جاهدًا أن أنهي دراستي لأبدأ بدراسة الماجستير، وحتى ذلك الحين فإني لا أطمح بالسياسة ولا حتى أرغب في سماع أي أخبار عنها. وبعدها طلب مني المحقق العودة إلى الزنزانة، فأحسست باليأس يومها؛ لكونه لم يطلب مني أن أوقع على أقوالي، مما يعني أن هنالك تحقيقًا آخر قد لا أعرف منحاها!

لم تكن قصتي فريدة من نوعها في السجن؛ فقد كان المهجع يكتظ بمعتقلين لا تهمة لهم ولا ذنب، ولا حتى فكروا يومًا في الخروج على النظام، وأذكر منهم:

الكسواني

وهو موظف متقاعد من سكان الكسوة، له شعر كثيف ولحية كثيفة، يكسوهما الشيب، اعتقل على أحد حواجز الجيش في ريف الشام يوم الجمعة، وكان أن سأله العسكري:

أنت من الكسوة، شو جابك لهون يوم الجمعة، جايي تتظاهر ما هيك؟

ورد الكسواني:

سيدي إذا كنت بدي أظاهر كنت ضليت بالكسوة، ليش حتى آجي لهون، كنت زيارة عند أقاربي بالمنطقة.

ورد العسكري:

يعني بتتظاهر ما هيك، أنزل تقلك..

حاول جاهداً أن يقنعهم بأنه لم يأت للتظاهر، وأن جُل زيارته كانت لزيارة الأقارب، ولم يقتنعوا بذلك، فاعتقلوه وقالوا رح نوديك الفرع وهنيك بيشوفوا شغلون.

والواقع أن العساكر ربما كانوا يعملون براءة، لكن بالنسبة إليهم فإن اعتقالهم عشوائياً لأحد الأشخاص لمجرد الاشتباه فيه أو عدم

الارتياح له هو بمثابة إثبات الولاء والطاعة للسيد أو الضابط الأعلى. لكن الحقيقة أن ارتضاءك أن تعتقل شخصاً بريئاً وأن ترميه في أبشع السجون لمجرد إثبات الولاء معناه أنك مستعد لأن تذبح الشعب إذا طُلب منك ذلك يوماً.

والمشكلة الأكبر أن أي شخص يعتقل على الحواجز سيعاني تعذيباً إضافياً، زيادة على التعذيب في الفرع الأمني، وسيقوم كل عناصر الحاجز بضربك وتعذيبك إذا كنت صاحب الحظ العاثر الذي قبض عليه على الحاجز الأمني، إلى أن تأتي دورية لاصطحابك إلى الفرع، وبعد أن تأتي الدورية ستقوم أيضاً بتعذيب المعتقل بكل ما وجدوا من أدوات؛ فمن أنت حتى يأتوا من أجلك، من أنت ليتركوا شغلهم ويحضروا سيارة وعناصر من الفرع لاعتقالك؟!.

وخلال هذه الفترة وإلى أن تصل إلى الفرع، ستضرب من ثلاثة أشخاص بأخص السلاح طوال الوقت على الرأس والرقبة.. وأنت البريء من التهم الذي اعتُقلت دون سبب!

التحقيق الأول مع الكسواني كان كالمعتاد:

شو اسمك، شو بتشتغل ووين بتشتغل؟

وفي التحقيق الثاني جاء المحقق بنفسه إلى الزنزانة وشحط الكسواني من شعره، وحقق معه لأكثر من ثلاث ساعات، وتبين لاحقاً أنه قام

بشيخ الرجل المسن المتقاعد لمدة ساعتين، وقام كل شخص في الفرع بجلده، ثم بعدها قام بالتحقيق معه، وكانت التهمة كالتالي:

الكسواني اشترى حلويات لأهله في الثاني عشر من شباط عام 2008م، وهو يوم مقتل عماد مغنية في دمشق كفر سوسة، وكان التحقيق عبارة عن جملة واحدة:

ليش اشتريت حلويات لأهلك يوم «اغتيال» عماد مغنية في عام 2008م؟، وكان رد الكسواني: أنا ما بشوف أخبار وأصلاً ما بعرف مين عماد مغنية، وكان ذلك سبباً في زيادة تعذيبه، ثم حاول المحقق أن يتهمه باغتيال عماد مغنية!

المحقق: ليش اشتريت حلو يوم اغتيال عماد مغنية؟

الكسواني: مين عماد مغنية؟

المحقق: وعامل حالك ابتعرفوا كمان، اعترف ولك..

الكسواني: بشو بدّي أعترف يا سيدي، أنا من الشغل ع البيت، ومن البيت ع الشغل.

المحقق: لكن ليش اشتريت حلو يومها؟

الكسواني: يا سيدي أنا بشتري حلو اذا كان جاي عيالي، أنا بدخن،

ومرّات بتخطر ببالي الهريسة مع الدخان، فبشتري وأنا راجع البيت،
وفي محل ع دخلة بيتنا، بشتري من عندو.

المحقق: معناها متذكر انك اشتريت حلو يومها؟

الكسواني: متذكر شو يا سيدي، أنا بشتري وقت تجي على بالي.

المحقق: اعترف أحسن ما أسلخ جلدك!

الكسواني: يا سيدي ما انتو سلختوه ومشي الحال، يا سيدي لو كان
أكل الحلو ممنوع يومها، ليش كانت محلات الحلو فاتحة وعك تبيع؟!
المحقق يجلد الكسواني، ويصرخ: خليناها فاتحة لنعرف الخونة
أمثالك، يلي رح ينسطوا بهيك عملية.

وقد كان الكسواني يعرف أن المحقق يبحث عن انتصار له؛ انتصار
قد يكون السبب في ترقية أو زيادة في المرتب أو مكافأة، هو يعلم أن
الكسواني بريء، والكسواني يعلم أن المحقق يعلم ببراءته، ولكن
المحقق كان يطمح في انتصار على حساب مواطن بريء قد يقول أي
شيء يطلبه منه المعتقل فقط ليكف عنه تعذيبه، كان يطمح أن يقوم
بتعذيب شخص لساعات ليعترف بالمشاركة في عملية ضد البلد،
فيخرج المحقق بذلك منتصراً انتصاراً وهمياً؛ انتصاراً يعرف كلاهما أنه
زائف. كان الكسواني يعرف أن الاعتراف بما يريد المحقق هو الخلاص

بالنسبة إليه، هو يعلم والمحقق يعلم أن لا دخل له بالعملية من قريب أو بعيد، ولكن اعترافات كتلك كفيلة بأن لا يرى الكسواني بعدها النور. وقد رفض الكسواني الاعتراف بذلك، وكانت عقوبته التعذيب لمدة ثلاث ساعات.

وفي التحقيق الثالث لم يعذبه المحقق، وإنما عرض عليه عرضاً، كان كالتالي:

شو رأيك يا كسواني تعترف بأنك كنت مشارك باغتيال عماد مغنية بالتحريض من جماعة الحريري، وبأنك كنت تحرض الناس على التظاهر بالكسوة وكنت تستلم مصاري من الحريري، وبتقول هالاعتراف على التلفزيون وبعدها بنخلي سبيلك؟

واعتراف كهذا كفيلاً بأن يهز بلدًا بأكمله، وتزوير اعتراف كهذا أيضاً كفيلاً بإسقاط نظام بأكمله في البلدان التي تحترم نفسها، ولكن على ما يبدو أنه ليس المحقق وحده من كان يبحث عن انتصار مزيف من خلال الكسواني؛ بل كان أسياد المحقق أيضاً يبحثون عن ذلك.

كنت والكسواني صديقين مقربين، وقد تحدثنا بعد ذلك لساعات، كان يضرب كفّاً بكفٍّ من الحيرة، ويقول: أيّ فجور هذا!، هم الذين قتلوا الحريري، وهم أنفسهم بلغوا عن مكان عماد مغنية لتكون واحدة

بواحدة، وكل هذا يريدون تطبيقه على حسابي، أنا المواطن المتقاعد الغلبان، عشت حياتي من البيت إلى الشغل، ومن الشغل إلى البيت، لا أعرف سوى منزلي، وشغلي، ومحل الحلويات على دخلة بيتنا. وكان ذلك كافياً بالنسبة إليهم ليلصقوا بي تهمة كفيفة بأن لا أرى النور بعدها، فأني ظلم وجبروت هذا.. يلعن روجو قال هو منيح ويلى حواليه عر**، ليش مو «هو كبيرهم الذي علمهم السحر»!

خرجت والكسواني في نفس اليوم من السجن، وصار يضحك بعدها، وقال امبارح كنت متهم باغتيال عماد مغنية، واليوم أنا بريء، هذا مو نظام، هاي مزرعة ونحن الغنم فيها.

* * *

قاسم

يسكن في منطقة القدم، شعره أسود داكن، وذقنه سوداء كثيفة، كانت ذقنه صغيرة عندما دخل السجن، ولكن كان من الناس الذين ينمو شعرهم وذقنهم بسرعة، كان يملك دكاناً إلى جانب المسجد، كان شاباً لطيفاً، خلوقاً، متديناً، يحاول دائماً أن يخفف عنا بالحجة والدين، كان ينصح الناس بقوله:

إذا لم تستطع تحت التعذيب، حاول الاعتراف، إذا طلبوا منك الكفر، اكفر، لسنا عمار بن ياسر، ولا نستطيع صبراً..

كان قاسم متكلاً مُفَوَّهاً، اعتقلوه من دكانه عندما حاول الأمن تفريق مظاهرة خرجت من المسجد الذي بجوار دكانه، فدخل بعض العناصر الدكان، وأخذوا كل ما استطاعت أيديهم حمله وخرجوا، فناداهم: وين الحساب يا أستاذ؟

وكلمة أستاذ كانت أكبر شتيمة يمكن أن تقال للعسكري؛ فأن تقوم بتحية العسكري بأشرف مهنة يمكن أن يمتنها المدني يُعدُّ أكبر سُبَّة يمكن أن توجهها إليه!، فعادوا إليه، وقاموا بضربه إلى أن كسروا له أحد أضلاعه، يضر بونه بالبوط العسكري، والشتائم تنهال عليه:

مين الأستاذ يا أخو المن***، لمن ما تقول أستاذ؟
 كان يحاول أن يفهم سبب غضبهم عليه؛ ليعرف سبب هجومهم
 كالكلاب المسعورة عليه، ولكن الوقت كان قد فات.
 ولقد رموا به في الباص، وأحضره إلى الفرع 227.
 في التحقيق الأول كالمعتاد: شو اسمك، شو بتشتغل وين بتشتغل؟
 ثم نظر المحقق في وجهه وانهاه عليه بالضرب، ليش دقنك هيك ولك،
 سلفي أنت، ولا تنظيم إرهابي، أنت إرهابي اعترف أحسن لك، قبل ما
 تيجي الدراسة الأمنية.

جواب قاسم كان: يا سيدي أنا والله دقني بتطلع بسرعة، أعطيني
 شفرة هلق بحلقها.

وللصراحة كانت ذقن قاسم كذلك، والمحقق يعرف ذلك، كون
 الذقن غير مشدّبة وفي كل الاتجاهات، وذلك يدل على أنها طالت لقلة
 حلاقتها، وليس قصداً، ولكن ذلك لا يعني أن المحقق لن يوجه لك
 تهمة إضافية، والذقن وحدها كانت سبباً كافياً لينهاه المحقق بعدها
 بسيل من التهم، وكلها مرتبطة بالإرهاب والتنظيمات.

وجاءت الدراسة الأمنية وطلب قاسم للتحقيق مرة أخرى، وفي
 المرة الثانية، قام المحقق بحلق ذقن قاسم، والحلق في السجن كان ككل

شيء، هو وسيلة تعذيب أيضاً؛ حيث يقوم المحقق باستخدام ماكينة الحلاقة، ثم يشدها بقوة لتقوم بتنف الشعر بدلاً من قصه، كان المحقق يتنف الشعر وفي كل شدة كان يحاول أن يوصل رسالة مفادها أنه سينتفه في كل مرة يقوم فيها بحلق ذقنه..

وقد اتفقت مع قاسم - كما الحال مع غالبية المعتقلين - على أن يقوم أي شخص فينا يخرج أولاً بإخبار عائلة الآخر، وطمأنتهم على حاله. لكن قاسم كان الشخص الوحيد الذي خرج من المعتقل وأخبر والذي بأني لا زلت حياً في السجن، وأن حالتي بخير، وأني لم أعرض للتعذيب كباقي السجناء، وكان ذلك الخبر كفيلاً بإعادة البسمة إلى جدتي وأمي، وإعطاء طاقة من الأمل لوالدي بأن جهوده وإن لم تنجح إلى الآن في إخراجي من السجن؛ لكنها على الأقل قد خففت من تعذيبي.

وفي اليوم الثاني والعشرين دخل شخصان جديدان؛ أحدهما شاب من مدينة القزاز أسمر اللون أسود الشعر، والآخر من منطقة بيبلا أشقر الشعر أزرق العينين.

وظننت في البداية أنهما صديقان؛ فقد كانا يتحدثان طوال الوقت، مما أشعل الفضول بداخلي، وجعلني تائفاً إلى أن أسمع أحاديثهما، وأن أعرف ماذا يقولان، وعلى ماذا يضحكان، وماذا لديهما من أخبار،

وكيف لي أن أعلم أخبار العالم الخارجي من خلال اعتصار خلاصة ما لديهما من أنباء، إنها حالياً وسيلتي الوحيدة لتحقيق كل ذلك.

كانا ينظران إليّ وكأنهما يعرفان أنني أرغب في سماع قصصهما، وبعد ساعات من مراقبي لهما تذكرت أول أيامي في السجن، وكيف كان الجميع ينظرون إليّ، وكيف كنت أنظر إليهم نظرة ملؤها الخوف، والقلق، والشك؛ ظناً مني بأنهم يحاولون التجسس عليّ.. وما إن تذكرت ذلك حتى قطعت سلسلة أفكارى واخترت الذهاب والتحدث إليهما.

مرحباً بكما، أنا ياسر، سجين هنا، تهمتي هي التظاهر غالباً!
فنظرا إليّ باستغراب متسائلين: كيف تقول غالباً؟؛ هل أنت جديد هنا؟!

ورددت عليهما قائلًا: لا، بل مضى لي هنا قرابة الثلاثين يوماً، ولكنني لم أتعرض للتحقيق حتى الآن، والغالب أنها إشارة سيئة، فالجميع هنا يُستدعى للتحقيق بعد قرابة الأسبوع. ثم أكملت حديثي واسترسلت قائلاً:

إنه يومكم الأول هنا؟ غالباً ستظنون أن الجميع جواسيس، ولكننا هنا مثلكم، معتقلون مدنيون بتهمة التظاهر أو عسكريون بتهمة الانشقاق.

فقاطعني الشاب ذو الشعر الأسود ووضعه يده على كتفي وقال قال:
لا، ما خافين أخى، وضحك بعدها، ثم استكمل حديثه ليقول:
نحن هنا منذ سبعة أيام، وقد تعرضنا للاعتقال في إحدى المظاهرات
في منطقة الميدان، ولكنهم رمونا في المفردة لأسبوع كامل.
وأجبت مدهوشاً:

أنت من جماعة المفردات الذين يولولون ليل نهار؟ كنا نسمع
صراخكم طوال الليل، عسى أن ذاك لم يكن تعذيباً شديداً، ولا هو قد
خلف إعاقات مستديمة!

ورد قائلاً: لا الحمد لله، طلع جلدنا بيتحمل.

ولاحظت أن رده لم ينفِ التعذيب، بل أكد حصوله، فقد كان
معتقلو المفردات أكثر الناس تعرضاً للتعذيب، وكان صراخهم يملأ
المكان دوماً، وتهمهم غالباً لها علاقة بالتنسيقيات والإعلام والتعامل
مع قناة الجزيرة.

سألته عن التهمة، فأجاب:

لا توجد تهمة، فأنا طالب ماجستير صحافة، وعندما علموا أنني
أحمل الماجستير في الصحافة زاد ذلك على لؤمهم لؤماً، فأخبرتهم بأن
الماجستير ليس صحافة، وإنما سيكون في إدارة الأعمال. وبحسب قوله

فإنهم بعد أن علموا أنه ليس صحفياً خفّسوا مستوى التعذيب عليه قليلاً، ولكنه كان تعذيباً مُدمياً في الحالتين. وقد حاول أن يقنعني بأن التعذيب كان يتناسب طردياً مع الدرجة العلمية، فقاطعته وقلت له، أعلم ذلك؛ فقد رأينا ذلك بأم أعيننا ههنا، ولست وحدك من عانى ذلك، وانظر حولك.. كلنا تحملنا نفس التعب، وعانينا من نفس المشكلة، وتعذبنا جسدياً ونفسياً للأسباب ذاتها.

كانت تلك الأحاديث هي الـ (icebreaker) = كسر الجليد، أو فاتحة الموضوع، وهي الطريقة التي نستخدمها للوصول إلى قلب كل سجين؛ نعم تعذبت أنا أيضاً، مثلك،

ربما أكثر، أو أقل،

وربما بنفس الدرجة،

ولم نسلم أيضاً من الإهانة.

منذ اليوم الأول، ابتداءً بالاستفتاحية؛ فقد تكاثر علينا السجانون عندما دخلنا، جميعنا مررنا بذلك اليوم وعانينا ذلك الضغط العصبيّة، ومع ذلك فقد نجونا، فله الحمد!.

في الصباح، كانوا أحياناً يرشون الماء علينا حتى يأكلنا العفن.

وعند الفجر أيضاً هم يضربون بعصيهم الباب؛ ليقطعوا علينا نومنا؛ حتى نستيقظ على صوت ضربهم للباب لو كنا نائمين؛ كي نهاجم أكثر. ثم سألته بعدها: كيف كانت استفتاحتك؟ هل تعرضت لذلك، كم كان عددهم، وهل تجمهروا حولك وانهالوا عليك بالضرب من كل الجهات؛ أم أنهم تركوا أمامك مجالاً للهرب، وطريقاً للحرية، وكلما نظرت إليه زاد ضربهم؟

وإذا حاولت الركض إليه، اشتد تعنيفهم؛

فهم يحاربونا بحريتنا!

ووحوش يتسلّون بفريسة لا حول لها ولا قوة!

تعرض القزايّ للتعذيب أسبوعاً كاملاً، وكان سؤالهم دومًا:

كيف تحمل شهادة الماجستير ولم تكتشف أن ما يتعرض له البلد هو مؤامرة كونية لإسقاط نظام المقاومة؛ قلعة الصمود الأخيرة في وجه الإمبريالية الصهيونية الأمريكية؟!

كان ذلك السؤال ليس أكثر من وجه لمنزع نفسيّ دفين في أعماق سرائرهم؛ وجه يحاول فيه السجانون إقناع أنفسهم بأن قيمتهم أكبر وأثمن وأعلم وأعلى وأفضل من أية شخصية مدنيّة، ودليلهم على ذلك أن شخصاً مثلهم لم يحصل على أكثر من شهادة الصف السادس

الابتدائيّ كان قادرًا على كشف هذه المؤامرة في وقت يعجز مدنيون يحملون شهادات جامعية عن كشفها، وهي على كل حال طريقة امتاز بها سفاحو القرون القديمة؛ فالجيش النازيّ الذي كان يؤمن بأن العرق النازيّ هو أسمى الأعراق كان أيضًا يصف اليهود بالجرذان، كان ذلك الوسم كافيًا حتى لا يشعر أيّ من عناصر الجيش النازيّ بالذنب عند قتل اليهود في المسالخ البشرية والمحارق، كان ذلك الوصف كان كافيًا لأن يعاملوا اليهود كما يعامل أحدهم أيّ جرذ يمر أمامه؛ يعذبه ثم يحرقه فيقتله دون شفقة، وهو ما كان جنود النظام ومخابراته وفروعه الأمنية يفعلون..

إنهم يؤمنون إيمانًا راسخًا بأن السلك العسكريّ عرق أسمى يمتاز بذكاء خارق يكشف كل ما يجول حوله من مؤامرات تحاك للبلاد، ويستطيع بذكائه الخارق أن يجعل أيّ كائن مدنيّ وضعيع يعترف بكل أفعاله، بل حتى بكل أفكاره التي لم تتحول يومًا إلى أفعال، أو حتى وساوس شيطانه، أو ما هو أخفى من ذلك من غيوب مستقبلية ربما أنه سيقترفها في المستقبل القريب أو البعيد!

تلك النظرة الدونية التي ينظرون بها إلينا كانت هي البداية لكل عمل إجراميّ يقومون به تجاهنا، وهي تبدأ بمجرد أن يقع نظرهم علينا، إلى

أن نصل إليهم، ونقع في برائتهم، وهنا تبدأ حكاية بطولاتهم على أناس عُزِّل لا حول لهم ولا قوة.

وقد دام نقاشي مع القزازيِّ لقرابة الساعتين، وحدثني هو عن الأوضاع خارج السجن، والمظاهرات اليومية عامة، ومظاهرات يوم الجمعة خاصة. وحدثته أنا عن نظام السجن، من اللحظة التي يدخل فيها أي سجين من الباب إلى أن يخرج من السجن.

كان شاباً متكلماً عجيب اللسان، ينطق لسانه بما تريد سماعه منه، وكأنه مثالٌ حيٌّ لموظف المبيعات، الذي تدخل محله فيبيعك ما يريد هو بالسعر الذي يريد برضى كامل منك ومع ابتسامة الرضى على وجهك! وبعد أن أنهينا النقاش، سألتني عن أول شيء أود فعله بعد الخروج من السجن، فأجبتة:

أريد الذهاب إلى منطقة الميدان، حيث يوجد مطعم فول وفلافل، تناولت فيه وجبة فول بالحامض والزيت يوماً، ولا زال طعم ذلك الطبق تحت لساني، لا أفضل الخروج صباحاً، بل أتمنى الخروج ليلاً، وأعلم يقيناً أن عاشق الحرية يفضل الخروج في أي وقت يتسنى له الخروج، فليس هنالك طعم كطعم الحرية، خاصة عندما تناها بعد أن حُرمت منها، ولكنني كنت أتمنى الخروج ليلاً حتى يتسنى لي أن

أرى الشام كما يراها العائد من السفر ليلاً في الأفلام، يحمل كثيراً من الذكريات، ينظر من شباك الحافلة، يطأطئ رأسه على النافذة ويتمعن المارّة، إنهم أناس يمشون في الشارع يراهم ولا يتنبّهون إليه، يلاحظ عادات الناس التي قد نسيها لطول الغياب، يتكئ على النافذة ويبتسم، يتحسر على غربة دامت طويلاً لسبب يعرفه ولا يحترمه، لسبب بعيد عن اختياراته.. ههنا جامع أسامة بن زيد، في منطقة باب الجابية؛ إنه ينظر إليها ويستعيد ذكرياته مع هذه الحارة حيث يتواجد مطعم فلافل صغير في زاوية المسجد (فلافل الزين)، ويعمل في هذا المطعم رجل وأبناؤه الثلاثة، يعملون في مطعم لا يتسع لهم، فباب الرزق كان ضيقاً، إلا أنهم اعتادوا عليه، يصنعون نوعاً واحداً من صندويش الفلافل؛ رغيف خبز كبير الحجم من المخبز الآلي، وملعقة كبيرة من الحمص المسبحة، وخمسة أقراص من الفلافل، وطماطم حمراء كبيرة الحجم؛ نصف حبة لكل صندويشة، ومخلل اللفت بكمية أكبر، مع عصرة من طرطور الحمص وطحينة السمسم، يتبعها رشّة من السماق والملح، ثم يطويها ويمدها إليك ليأخذ منك عشر ليرات؛ صندويشة فلافل من أطيب ما يمكن أن تتذوق في حياتك، صحيح هو محل صغير، ولكن نكهة صندويشته أكبر من الكوكب، لقد كانت بحق أطيب صندويشة فلافل في العالم!

ثم يتابع هذا المسافر طريقه بعدها إلى أن يدخل منطقة الميدان ويمر
بجامع الحسن، ويتذكر المظاهرات التي كانت تخرج منه، إلى أن يصل
إلى المتحلق، ويتجه يسارًا؛ فهناك كان المطعم المنشود.

كنت أصل هنالك عند العشاء، وأطلب صحنًا من الفلافل وصحنًا
من الحمص وصحنًا من الفول بالحامض والزيت، وكأس شاي خمير
(شاي تركي)، والمسجلة (الراديو) على صوت عبد الوهاب يغني:
إمتى الزمان يسمح يا جميل.

وأخبرت القزايي أنّ الجميل هنا هو صحن الفول، الذي لا زلت
أحلم بتناوله عند المساء!
ثم غنيها سوياً:

إمتى الزمان يسمح يا جميل،
واسهر معاك على شط النيل..

الجو كله سكون والورد نام عالغصون..
والقمر طالل علينا، والعزول غاب عن عينينا..
وأنا والجميل قاعدين سوا قاعدين سوا؛
قاعدين سوا على شط النيل.

إمتى الزمان...

الدنيا كلها حاسداناً، والنسمة كانت حيرانة..

والموج يبحكي حكاية للشط ما لها نهاية..

وأنا والجميل قاعدين سوا قاعدين سوا؛

قاعدين سوا على شط النيل.

إمتى الزمان...

وما هي إلا لحظات وانضم لنا مجموعة أخرى من المساجين، وصاروا يغنون معنا، حتى أن بعضنا أجهد بالبكاء بعد أن أنهى الجملة الثانية:

إمتى الزمان يسمح يا جميل،

واسهر معاك على شط النيل!

حاولت أن أواسي القزازي في مصيبتة، وأن أجعله يشعر بأنه ليس وحيداً في هذا السجن، إلا أنه كان أفضلنا؛ سمع شكواي، وحسن من مزاجي، وزرع فيّ أملاً جديداً في الحرية، وبأن الزمان سوف يعود كما كان، وبأنني سأخرج من هذا السجن وأزور الميدان؛ أقرب أحياء الشام إلى قلبي.

* * *

محمد

شاب دمشقيّ سليط اللسان، اعتُقل أثناء تفريق الأمن مظاهرةً في حيّ القدم، كان الاعتقال بجانب منزله، مما زاد من قوة حجته، حيث كان المحقق يتهمه بالتظاهر وهو يصصر على أنهم اعتقلوه من باب بيته. واللافت في الحجة أنها كافية لتبرئته، خاصة أن المحقق لم يستطع أن يثبت العكس، كان يملك حسًا فكاهيًا، وكلما اتهمه المحقق بالتظاهر قال له:

سيدي بالعقل أنت احكم، كلنا بنعرف أنكم بتسلخوا جلد الواحد بس تعتقلوه، وكلنا بنخاف نكون، في حدا عاقل وفيه مخ بيتظاهر قدام بيته؟

وقد أعطى جوابه هذا للمحقق نشوة من نوع خاص، كان الباعث لها هو توهمه أن الجميع يهابه، وأنه قوي وقادر على جعل الناس يحسبون حسابه، وكان ذلك بالنسبة إلى المحقق أعظم مدح قد سمعه طيلة حياته. وبعد ذلك المدح كفّ المحقق عن تعذيبه، حتى أنه أعطى محمدًا سيجارة ليدخنها!

وأخبرني محمد أن تلك السيجارة كانت من نوع الحمرا الطويلة،
وأنها كانت ألد سيجارة دخنها طوال حياته، وأنه بعد أن يخرج من
المعتقل، سيقوم بتغيير دخانه إلى الحمرا الطويلة.

لم يكن محمد متدينا كثيراً، وكانت غالبية أفكاره علمانية، فالعلمانية
بالنسبة إليه كانت حلاً سريعاً، من منطلق أن سوريا بلد علمانيّ، وأن
إسقاط النظام والحفاظ على علمانيّتها هو أسهل كثيراً من تغيير طبيعتها
إلى بلد مدنيّ أو دينيّ.

وقد رافقني محمد في كل الزنانات، من المجمع ج3، إلى فرع
الدوريات، وفي فرع الدوريات أصابه الجرب في آخر عشرة أيام لنا في
المجمع، ووصل إلى حالة حرجة، وبعد أن انتشر الجرب بشكل كبير بين
المساجين، أحضروا لنا دواء للجرب، وكانت صلاحية الدواء منتهية
منذ عام 2005م، ولكنه كان أحسن من بلا. وقد ساعد الدواء محمداً
قليلاً وتحسنت حالته إلى أن شُفي، فصار يصلي معنا بعدها، وحفظ
سورة الفلق والناس والإخلاص. وقد قال لي إن أول شيء سيقوم به
بعد الخروج من السجن هو شتم أخت الرئيس، وأول فعل سيفعله هو
الخروج في مظاهرة!

في اليوم التاسع عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر دخل المهجع بعض المعتقلين الجدد وأخبرونا بأن هنالك وفدًا للجامعة العربية سيزور دمشق، وبأن هنالك إشاعة كبيرة عن عفو شامل يشمل كل معتقلي الرأي، وبأن تسوية عسكرية ستشمل كل العساكر المنشقين عن النظام. وقد طار جميع المساجين من الفرحة، وصار بعضهم يَغْنِي وبعضهم الآخر يصفق، ففتح المساعد أبو عمر الباب وصرخ في وجهنا، ثم أشار لنا بيديه أن نسكت، وأشار إلى الباب الخارجي ففهمنا أنه يطلب منا التزام الصمت؛ فهناك من هو غير سعيد بالأخبار التي وصلت اليوم، مما أكد لنا إشاعة العفو الرئاسي.

وفي اليوم التالي كان بو علي هو المساعد المناوب، ولكونه من الطائفة العلوية فقد كان يملك مساحة أكبر في نقل الأخبار لا يملكها المساعد أبو عمر. وفتح المساعد بو علي الباب ثم ضرب بعصاه الباب عدة مرات وقال:

انبسطوا يا إخوات المن***، هي مارح يضل ولا واحد فيكن هون بهاليومين.

لم يخبرنا الرجل صراحة بأنه سيعلن عفو رئاسي أو ما شابه، وكل ما نقله هو أننا لن نكون في الفرع بهاليومين القادمين.

وحينها طار الجميع من الفرحة وعمّ السرور المهجع، حتى أن بعضنا قد توقف عن تناول طعام السجن وما فيه من الحصى. وعلمنا من الحشاشين أن المساعد أخبرهم بأن يوم الجمعة سيكون موعد خروجنا جميعًا.

استيقظنا جميعًا في اليوم الثالث والعشرين من كانون الأول قُرابة الساعة السادسة لتناول الفطور، وبدأ أغلبنا في جمع أغراضه انتظارًا لإخلاء السبيل المزعوم.

بعد عدة ساعات سمعنا صوت انفجار مرعب هز المكان، فطارت النافذة من مكانها وتشقق السطح فوقنا ووقعت بضعة أجزاء من السقف على رأس أحد المعتقلين معنا، وأصيبت آذاننا بالطنين لبضع دقائق، ثم عمّ الصراخ المكان وبدأ البعض بالبكاء والبعض الآخر بالسعال الشديد. وأصيب كل من يعاني من الحساسية أو الربو تقريبًا بالاختناق. وصرخ بعدها المساعد بو علي بأنه لم يحصل أي شيء، وكل ما في الأمر أن طوبة وقعت من السطح على الشباك. وقد صدقه بعضنا، ولكن بعد أن عمّ الغبار المكان وزاد السعال الشديد عند البعض إلى أن وصل حد الاختناق بدأ بعضنا بالصراخ ليفتحوا لنا الباب، وصار الباقون يضربون على باب المهجع! كان الأمر أشبه بالـ «apocalypse»؛

صراخ وبكاء وسعال وأناس يبكون بكاء شديداً ولا يعلم أيّ منا سبيل الخلاص. وأذكر أنّ محمداً صرخ وقتها:

افتحوا الباب يا إخوان المن***!

وعندها سكّت بعضنا؛ فنحن نوافق الرأي في ذلك، ولكن ذلك لا يساعد في تحسين حالتنا، فإن كان لدى هؤلاء العصابة نية في فتح الباب، فلن يفتحوه بعد ذلك؛ فهم يتعاملون مع جميع الناس بالنظام العسكريّ: «العقوبات جماعية والمكافآت فردية»، وهو أشبه بقوانين الغاب؛ حيث يعاقب الجميع خطأً فرديّاً ارتكبه أحد الأفراد من أجل أن يقوم جميع الأفراد الآخرين في المستقبل بقمع بعضهم بعضاً؛ خوفاً من العقوبة الجماعية التي حتماً سوف تطال كل شخص منهم.

وبعد أن صاح محمد بذلك، فتح الباب المساعد بو حيدر وصاح:

مين أخو المن*** يليّ سب؟

كان المساعد بو حيدر في أسوء حال، وكان منظره يُرثى له، شعره منكوش وتبدو على وجهه ملامح الانكسار، وقد علم بعد أن نظر إلى وجوهنا أن الحقيقة هي الشيء الوحيد القادر على تهدئتنا، فنظر إلينا وقال بأن هنالك هجوماً إرهابياً استهدف الفرع، وبأنهم أغلقوا باب الزنازة من أعلى، وبأنه الآن حيسس معنا.. مثلنا!

«قالت مصادر عسكرية وأمنية سورية إن أكثر من 40 قتيلاً قد سقطوا في الانفجارين اللذين استهدفا مقر إدارة الأمن وسط العاصمة السورية دمشق. ونقل عساف عبود، مراسل بي بي سي، عن المصادر تأكيدها إصابة 100 على الأقل!»

هذا النظام مهزلة!، تعرضوا لهجوم بسيارة مفخخة «حسب ما زعموا» وأول شيء فعلوه هو إغلاق باب الزنزانة، قبل أن يتشلوا جثثهم ويساعد بعضهم بعضاً، فإغلاق الزنزانة كان أهم لديهم من التأكد من سلامة الجميع، وطمس الحقيقة كان هو الأولوية الأولى عندهم، وأول شيء يخطر في بالهم، لقد تربّوا على ذلك حتى صاروا يفعلونه باللاشعور الخاص بهم.

وبينما كان يحدثنا المساعد بو حيدر بما حدث، صار يبكي، صار يبكي خوفاً من أن يقوم السجناء برد الصاع له، وعجيب شأنه؛ كيف كان يعذب الجميع بلا خوف، واليوم هو حبيس معنا وسجين مثلنا؛ يخاف منا كما كنا نخاف منه وأكثر، وقد علم أننا قادرون على رد أفعاله عليه! وللأمانة فلم يكن لأيٍّ أحدٍ منا النية في أذيته؛ فقد كان بو حيدر - رغم لؤمه وحقده علينا - أفضل من غيره، وكنا نختاره كل يوم ليكون المساعد المناوب بدلاً من المساعد نمر. وقد صاح الشيخ عندنا في المهجع قائلاً للمساعد حيدر:

بو حيدر ما تخاف منا، نحن أهل وأصحاب ويّلي بصير عليك بصير علينا بس الله يرضى عليك بدنا هالباب يضل مفتوح شوي، والله هالشباب اختنقت من الغبرا، وفي شوية شباب معها ربو ما بدنا لا سمح الله يصير عليهمون شي. هز المساعد بو حيدر رأسه بالإجابة، ومن ثمّ ترك لنا باب المهجع مفتوحًا.

وصرخ أحد المعتقلين معنا قائلاً:

والعفو سيدي، شو صار بالعفو؟

ورد بو حيدر سريعًا:

رح تطلعوا اليوم إن شاء الله كلكون.

لم أرتح لجوابه يومها، كيف سنخرج؟ من أين له كل هذه الثقة، هل هو يعلم شيئًا لا نعلمه، وهل كان الانفجار جزءًا من الخطة؟، تناقشت مع الشاب محمد في ذلك وسألته نفس السؤال؛ لكون النظام السوريّ معروف عنه بأنه دائماً ما يحاول قلب أية هزيمة يتلقاها إلى نصر مزيف كما حدث في عام 1973م، وفي عام 1967م، والحركة التصحيحية، واغتيال الحريري، ثم خروج الجيش السوريّ من لبنان، ثم إصرار تركيا على النظام أن يزيل لواء إسكندرون من الخارطة السورية قبل العمل بأية اتفاقيات اقتصادية..

وقد كان لديه نفس الشعور الذي تملكني، فكلانا يعلم فُجْر هذه العصابة وخباثتها، وختم محمد النقاش قائلاً:

سيدي، ممكن هالشي يَلِّي صار يغير تفكيرون أو يمكن ما كان عندون وقت يفكروا شو بدون يساواوا.

وخلال حديثنا صاح شاب بأنهم قطعوا المياه، وبأنه لا مياه لدينا، وطلب من الجميع الصبر.

وبعد قُرابة الأربع ساعات عادت المياه إلى الصنبور وهرع الجميع إلى الشرب، واصطففنا على الدور إلى أن شرب كل شخص فينا ما يَبْلُ ريقه. وبعد ذلك بدقائق، قام بو حيدر بإغلاق باب المهجع ثم بدأ يضرب بعصاه على الباب ويصرخ:

ما بدي أسمع ولا صوت أخو منيوكة، يَلِّي سامع صوته رح اخفيلو ياه.

وقد تملكتنا الحيرة بعد ذلك، كيف له أن يقول ما قال، خاصة بعد أن أغلقوا الباب عليه ورموه معنا، والآن بعد أن فتحوا الباب عاد لحضنهم كما يعدو الكلب إلى صاحبه. يقولون في الشدة تعرف معادن الناس، وهم قد تخلوا عنه عند الشدة ورموه معنا، أما نحن فطمأناه بأنه أخ لنا، يبدو بأنه كان يفضّل أن يكون كلباً على أن يكون إنساناً وأخاً. لقد تملكنا

شعور بغیض، أشبه بشعور شاب قبلت بالارتباط به فتاة طالما حاول إقناعها بالقبول، ثم ما لبثت أن تركته لتقبل بشخص آخر سواه.

لم تقدم وجبة الغداء في ذلك اليوم، ولا حتى العشاء؛ كان العناصر منشغلين بشيء آخر. ومرت ساعة أخرى ثم فتح المساعد بو حيدر الباب، وأشار إلى محمد بعصاه، ثم أمره بالخروج، وعندما اقترب منه محمد، قام بو حيدر بضربه بالعصا على رأسه ما يزيد على العشرين ضربة!، يضرب ويصيح:

لكان نحن أخوات منيوكي؟ والله لأعدمك هون.

ونسي المساعد بو حيدر ما قلناه له، وتنكر للأمان والطمأنينة التي منحناه إياها أحوج ما كان إليها في وقت خوفه، وعندما انتهت الشدة، عاد أدراجه كلبًا مسعورًا وقِيًّا لأسياده، لا عمل له سوى البطش بالمساجين العزل الذين لا حول لهم ولا قوة.

ثم إنه وقراءة الساعة السابعة والنصف ضرب المساعد بعصاه الباب صارخًا بأعلى صوته:

يلا هنت وياه، الكل يقوم، رح تطلعوا كلكن، يَلِّ بنادي اسمو بيطلع..

فعادت البهجة إلى قلوبنا بعد أن قال ذلك، ثم إنه بدأ ينادي بالأسماء، وكان على من ينطق اسمه أن يحمل جميع أغراضه ويخرج. وقد كان اسمي من أواخر الأسماء التي نطق بها المساعد، وهو شيء اعتدت عليه طوال حياتي؛ لأن اسمي يبدأ بحرف الياء، فأنا آخر من ينادى عليه. وقد كان لي من اسمي حظ وفير أيام الدراسة؛ فأنا لست بحاجة لأن أدرس بداية الفصل؛ فكل الأسئلة وعلامات الفصل خلال أيام الدراسة كانت تبدأ بالترتيب الهجائي، وقد وصلت إلى مستوى من الخبرة التي أستطيع من خلالها أن أخمن متى يحين دوري. أما الآن فاسمي سيكون من أواخر الأسماء خروجاً من المجمع بسبب الترتيب الهجائي، كان ذلك هو ما قد ظننت، إلى أن حان الوقت ونادى المساعد باسمي: ياسر العيد..

خرجت مسرعاً من المجمع، ومشيت يميناً بضع خطوات، ثم اتجهت مسرعاً باتجاه الحمامات، ولكن بعد بضع خطوات أحسست بشد عضلي في كلتا رجليّ، لم انتبه لسبب ذلك؛ وأني لم أمش سوى بضع خطوات منذ دخولي السجن، وأني وصلت إلى مرحلة خائنتني فيها قدمي ولم أستطع التقدم إلى الأمام لبضع خطوات. وبعد ذلك بدأت بالالتكاء على الجدار والمشي باتجاه المطبخ. وعند نهاية السرداب كان هنالك طابور، ثم سمعت صوت ضرب وصراخ وشتم، وههنا توجست خوفاً؛ لأنني

كنت على علم بأنهم لا يضربون ولا يشتمون من يخرج من السجن،
وها أنا ذا أسمع شتائم كثيرة، وأصوات ضرب عالية! نظرت إلى محمد
وأشرت إلى أذني تلميحًا باستغرابي لهذه الأصوات، أصوات الضرب
وأنماط السباب، وأشار محمد بإصبعه إلى رقبته وحركها حركة أفقية
مفادها أنهم سيقومون بتصفيتنا!

وصلنا إلى باب السجن وكان جميع المساجين هناك، وقد صفُّونا في
طابور، ثم قاموا بكلبشتنا باستخدام كلبشات بلاستيكية وأيدينا إلى
الخلف. نظرت يمنةً ويسرةً فرأيت مساعد المحقق، وحاولت جاهداً
ألا يرى وجهي، فصرت ألتفت إلى اليسار عندما يكون على الجهة
اليمنى، وإلى اليمين عندما يكون على الجهة اليسرى. واشتغل عندي
وضع الـ «survival mode» أي وضع النجاة، حيث تحوّل جسدي كله
إلى عيون تراقب مكان مساعد المحقق، صرت أتتبع مكانه باستخدام
صوت قدمه، فقد كان يرتدي حذاء رياضياً على خلاف باقي العناصر
الذين كانوا يرتدون إما صباطاً أسود، أو بوطاً عسكرياً.

ولكن إذا كنت تحاول التعامل بذكاء مع مهمة دقيقة، فإنّ وضع
النجاة يكون مزعجاً جداً ويؤدّي إلى نتائج عكسيّة، ففي ذلك الوضع،
كان تركيزي كله فأني ألاّ يراني مساعد المحقق، ولم أنتبه إلى أن هنالك

العشرات من أمثاله يحيطون بنا ويطوّقون المكان. وبعد أن حان دوري قال المساعد:

خلص انت روح ع هداك الباص، وكانت الكلبشات حينها قد نفدت منه، ولم يُرد أن يفتح علبة جديدة، فطلب مني أن أذهب باتجاه الباص، وبينما كنت أمشي متجهاً إلى الباص صاح أحد المساعدين:

هاد بدو يهرب، امسكوه... لم أكن أعلم من هو المقصود بذلك، فرؤوسنا كانت متجهة إلى الأرض، وبعد عدة ثوان بدأ بضربي ثلاثة عناصر من الأمام ومن الجانبين، ثم صاحوا في وجهي بلهجة ساحلية ثقيلة:

بدك تهرب يا عر**، كل هالعناصر ومو معباين عينك، وأحد هؤلاء الثلاثة كان حاجب المحقق الذي رأيته في يومي الأول من الاعتقال، وقد حاولت أن أبقي وجهي متجهاً إلى الأرض كيلا يتعرف عليّ فيزيد لؤماً فوق لؤمه. والضرب ينهال عليّ من كل جهة، وصوت الصراخ يملأ المكان؛ صوت من هنا يقول: مين ربك ولك؟ فيرد المعتقل: بشار سيدي، وصوت آخر يقول: كم دفعلك العرعور ولك؟ وصوت آخر ينادي: يلاً يا عراير، ما بدني شوف ولا عرعوري رافع راسو.

وبعد قُرابة الخمس دقائق جاء شخص من الخلف وكلبشني بكلبشات بلاستيكية، ثم طلب مني المشي للأمام، فمشيت قليلاً وإذا

بالكلبشة تشد على معصمي أكثر، فعلمت أنه لا يزال يمسكها لتشد أكثر، فتوقفت عن المشي وسألته:

أمشي؟ كانت إشارة مني بأني أعرف أنه لا يزال يمسكها، فرفسني من الخلف إلى أن شد الكلبشة شداً يكاد يقطع معصمي، ثم رفسني ثانيةً وطلب مني الذهاب إلى الباص.

وفي الباص كان ينتظرنا ثلاثة عناصر؛ أحدهما سائق والآخران واقفين على الباب يضربان بالهراوات كل شخص يدخل الباص، ثم يأمرونا بالتوجه إلى الكرسي الذي يشيرون إليه، وقد كان حظي أفضل من غيري؛ حيث إن الباص كان قد أوشك على الامتلاء، فكان مقعدي هو الأخير من الجهة اليمنى للباس. وبعد أن امتلأ الباص بالمعتقلين وتحرك قليلاً، ظننا أنهم سوف يأخذوننا إلى منطقة نائية ويعدموننا ميدانياً، وما هي إلا بضع دقائق حتى صاح أحد العناصر بلجة ساحلية ثقيلة:

حظكن بالسما إنو اللجنة العربية هون ولا كنا رح ندفنكن كلكن وائتن عايشين، بس لا تخافوا، رح تاكلن يلى فيه النصيب. ثم بدأ هذان العنصران بالضرب والبطش يمنة ويسرةً باتجاه الرأس وأعلى الرقبة، أما الشتائم وسب الذات الإلهية فحدث ولا حرج:

مين ربكن انت ويّاه؟

مين ربك ولك؟

قديش دفعلك العرعور؟

وبعد قرابة العشر دقائق تعبوا من ضربنا، فطلب أحد العناصر من
أحدنا أن يغني، وإلا فسوف يهشم وجهه، فقام ذلك الشاب بغناء أغنية
عن حافظ الأسد:

تسلم للشعب يا حافظ، أمل الملايين يا حافظ!

وعندما أمره العنصر بالسكوت، رفض الشاب وأكمل الغناء، إلى
أن أنهى الأغنية. وفي تلك اللحظة تملك العنصر شيء غريب؛ ويبدو
أن أغنية من هذا النوع كانت كفيلة بأن تخيفه، كان يخاف من حافظ
الأسد كخوفنا منهم، لا أعلم إذا ما كان سبب ذلك هو الخوف منهم،
أو الخوف من أن يشي به أحد إليهم، ويخبرهم بأنه قد ضرب شخصاً
يغني لحافظ الأسد! مرت دقائق وتوقف الباص عن الحركة، ونظرت
إلى المعتقل بجاني وسألته إن كان يعرف المكان، فأخبرني بأن هذا هو
فرع الدوريات، فكان ذلك بمثابة بشرى لنا؛ فقد تم تحويلنا إلى فرع
آخر، فيبدو بأننا سنعيش يوماً آخر.

ثم بعد توقف الباص أمرنا المساعد بالنزول، وعندما حان دور نزولي، قال لي:

هنت ياللي كنت بالأخير مكيف ما حدا وصلك، ثم رفسني وأنا أحاول نزول درج الباص، وقد كان رأسي متجهاً إلى الأسفل كما أمرونا، فأدّت رفته تلك إلى خلل في توازني حيث سقطت على وجهي (روّاسي)، وكان رأسي هو أول ما لامس الأرض، أو وجهي تحديداً، حيث سقطت على خدي الأيمن واحتك وجهي بالأسفلت لبعض الوقت، وللوهلة الأولى ظننت أن وجهي الأيمن قد تهشم. لم استطع الوقوف بعدها لبضع ثوان إلى أن جاء شخص من بعيد ظننت بأنه جاء لمساعدتي على الوقوف، لكنه بعد أن وصل إليّ قام بصعقي بعضاً كهربائية أفقدتني الوعي لبضع ثوان. ثم ما لبثت أن عدت لوعيي. حاولت الوقوف وصرت أترنح يمنة ويسرة، ثم رأيت شخصاً من بعيد ينظر إليّ، وصار يقترب مني أكثر فأكثر، وأنا أترنح محاولاً جهدي أن أعود إلى الطابور. وبعد أن اقترب ذلك الشخص مني توقف قليلاً ثم دار حول نفسه وركلني على رأسي، سقطت على الأرض ولم أستطع الحراك، وما انفك ذلك الشخص عن ضربي. وبعد عدة دقائق جاء أحد الضباط وطلب منهم أن يفكوا وثاقي، ويأخذوني إلى الحمام كي أغسل

وجهي، وأن لا يقتربوا مني، ثم يأخذوني إلى مكتبه بعدها. وذهبت إلى الحمام وغسلت وجهي، ونظرت في المرآة لأول مرة منذ عدة أسابيع!، كان جانب وجهي الأيمن مليئاً بالدماء، وبعد أن غسلته تبين لي أنها جروح سطحية، فحمدت الله على ذلك، ثم أخذني العنصر إلى مكتب الضابط.

سألني الضابط: لماذا هاجمني العناصر؟ وأجبت به حدث، وكيف فقدت توازني بعد أن تعرضت لرفسة من الخلف وأنا أحاول النزول ووجهي متجه إلى الأرض. ثم سألني عن التهمة فأجبت بأنه لم توجه إلى أيّ تهمة إلى الآن، ثم أمرني أن أعود إلى الطابور، وهنا بدأت حكاية فرع الدوريات..

* * *

فرع الدوريات

بعد أن دخلنا فرع الدوريات تبين لنا أنهم نقلوا المساجين المدنيين إلى فرع الدوريات 225، والعسكريين إلى الفرع 215.

كانوا يقومون بإدخال كل خمسة وثلاثين معتقلاً إلى مهجع. وقد كان المهجع الجديد أشبه بالجنة مقارنة بالمهجع القديم؛ غرفة بطول خمسة أمتار وعرض ثلاثة أمتار، الحمام فيها نظيف ومرتفع قليلاً عن الأرض، الشباك فيها أكبر حيث نسمع أصوات السيارات ليلاً وصوت الأذن عند كل وقت. في الفرع 225 كنا أكثر من خمسة وسبعين شخصاً في المهجع، وهنا نحن فقط خمسة وثلاثون في مهجع أكبر قليلاً. وبعد أن اكتمل عددنا خمسة وثلاثين شخصاً دخل مساعد إلى المعتقل معنا ليتأكد من العدد، وبدأ بالعد، وكان بعد أن يصل إلى الرقم 17 أو 18 يعيد العد من جديد، وعندما أعاد العد للمرة الثالثة بدا الأمر مضحكاً، كيف لشخص أن لا يتقن العد إلى هذه الدرجة!، وعلى حين يتقن الأطفال العد إلى المئة في سن السادسة؛ لا يستطيع هذا المساعد العد لأكثر من الرقم 17.. وبعد عدة محاولات طلب منا أن نصفّ في صفوف من خمسة أشخاص كي يستطيع عدنا بطريقة أسهل، والبديهي أن تظن أنه طلب

منا ذلك كي يعدّنا بطريقة المضاعفات: 5، 10، 15، 20، 25، 30، 35، لكن كان العجب أنه حتى ذلك النمط من العد كان فوق قدرته!، فكان يعدنا بالواحد، وأخطأ العد أكثر من ست مرات، وفي المحاولة السادسة وصل إلى العدد 27 ثم نسي ما بعده، وعلمنا أنه لا يستطيع العد، فسألنا من منا يستطيع العد وتهمته ليست تظاهراً، فرفع أحد الشباب يده، وقام بعدّنا بعدها، ثم أكّد للمساعد بأننا 35 شخصاً. وبعدها انصرف المساعد وأغلق علينا الباب.. وكان هناك وجوه مألوفة، ووجوه جديدة لم أرها من قبل كالكنكري والكهربجي والشيخ علاء وحيان.

* * *

الشيخ علاء

هو شاب أربعيني من سكان منطقة السيدة زينب أصله من نازحي الجولان المحتل، حافظ لكتاب الله، ومطلع في علوم الدين، كان أخوه أحد الناشطين في الثورة، ويعمل مع الكوادر الإعلامية في نقل الحقيقة. داهم الأمن منزل أخيه ولكنهم لم يجدوه، كان منزل أخيه مجاوراً لمنزله، وفي إحدى المداهمات، داهموا منزله أيضاً بحثاً عن أخيه، فأخذوه بالمعية.

كان الشيخ علاء يأمُّ بنا، كان يملك صوتاً شجيّاً عذباً يذكرني بصوت الشيخ ناصر القطامي، يجيد الترتيل، وكان يملك من القصص ما يكفي لأن يحكي لنا قصة كل يوم قبل النوم، ومن الأحاديث ما يُحيي فينا الأمل رغم قلته، تشاركنا نفس الزنزانة ما يعادل العشرة أيام، كان أقرب شخص لحالتي، حيث اعتقل كلانا قرابة الشهرين، ولم توجه لكلينا أيّ تهمة واضحة، كنا من أولئك الذين رُموا في السجن لنكون شاهدين على ما يحدث لكل من يخرج عن النظام؛ حتى ننقل لهم حقيقة ما يحدث بالسجون، ونخوف بها كل من يفكر في الخروج على النظام.

والتحقيق مع الشيخ علاء كان مختلفاً، حيث طلب منه المحقق في المرة الأولى الاعتراف بمكان أخيه، الذي كان يسكن في الأردن،

وجواب الشيخ علاء كان بأن أخاه كان يسكن في الأردن، وبأنه لم يزر الأردن في حياته، وذلك هو كل ما كان يعرف.

وفي التحقيق الثاني عرض عليه المحقق مبلغًا من المال يصل إلى المليون ليرة سورية (قُربة 15000 دولار في ذلك الوقت) إن هو تعاون معهم وسلّم أخاه، وحاول الشيخ علاء أن يقنعهم بلغة المنطق، بأن أخاه يعرف بأنه معتقل، وبأنه إذا حاول الاتصال به طالبًا منه العودة، فسوف يعلم يقينًا أنه اتصال من داخل السجن. وعندها غضب المحقق من الشيخ علاء بعد أن قال ذلك، وقام بجلده لقُربة ربع الساعة، كان المحقق فيها يصرخ:

شو مفكرنا أغبياء،

شو مفكرنا ما بنفهم،

ولك نحن أقوى أمن بالعالم.!

أقوى مخبرات في العالم تحاول إقناع شخص مسجون أن يتصل بأخيه الهارب منهم؛ ليقنعه بالعودة إلى حضن الوطن، وهو يعلم أن الاتصال قادم من فرع الأمن، يا له من منطق عجيب لا يخطر على بال طفل في السادسة من العمر، وربما يملك طفل في السادسة من العمر مستوى من الذكاء يسمح له بأداء ذهني ومنطقي أرقى من ذلك!

في إحدى المرات كان الشيخ علاء يتحدث نيابة عنا مع المساعد بعد أن أكل الجرب معظمنا، ويخبره بأن حالة بعضنا وصلت إلى مستوى متقدم قد يودي بحياته، وبينما هو يتكلم مع المساعد، إذا به يقول: سيدي، زميلنا هون الله يفك أسره!.

فلم يدعه المساعد ينهي جملته، فرفس الباب برجله بشدة، ثم انهال عليه بالضرب، وتماذى في الصراخ قائلاً:

يفك أسره؛ شايفنا مجرمين معتقلينو؟

يفك أسره؛ شايفنا كفار وآسرينو؟

يفك أسره؛ شايفنا معتقلينكم بدون سبب؟

يفك أسره؛ شو مفكرنا؟

وللحقيقة فإنهم مجرمون، وقد شهدنا موت عدة أشخاص على أيديهم تحت التعذيب، وغالبينا العظمى إنما هم متهمون بغير أية تهمة؛ فجميع التهم كانت اعترافات تحت التعذيب، علماً بأننا إن لم نعترف بما يطلبون منا أن نعترف به؛ فإنهم سيواصلون تعذيبنا، هم مجرمون ليس فقط بحكم الدساتير الشرعية التي وضعت لتخدم الشعب؛ وإنما بحكم دستورهم الوضعي أيضاً وهو الدستور الذي قد لفقوه هم أنفسهم؛ فلم يكن لديهم أدنى سبب لأن يعتقلوا أيّاً منا، فجميعنا إنما اعتقلنا فقط

ليرهبوا بنا من هم في الخارج من خطورة الخروج عليهم؛ ولنروي لهم كيف عذبوا أناسًا تعذيبًا متواصلًا حتى فارقوا الحياة، فلا يفكر أحد بعدها في الخروج عليهم.

في إحدى المرات كان الفطور بضع حبات من الجبن والمربى، فصاح الشيخ علاء:

يا شباب، شور أكون ساويلكون حلو من المربى والجبن؟

حلويات؟

وحينها قلت في نفسي: هل فقدت عقلك يا شيخ علاء؟؛ فعن أيّ حلويات تتحدث ونحن ههنا في السجن!

واقترح علينا الشيخ علاء أنه يستطيع أن يصنع منها حلويات نستلذ بها، ولكن قبل ذلك هو يريد أن يسمع القبول من الجميع. وقد أشار بعضنا بالقبول، وبقيتنا بالرفض، وبعدها قسمنا بناء على ذلك، وكان عددنا في مهجع فرع الدوريات بين الخمسة والثلاثين والسابعة والثلاثين، يزيد أو ينقص بحسب عدد المعتقلين. كان من وافق منا على تحويل فطوره إلى حلويات، قرابة الخمسة عشر، ثم قُسم الأكل إلى فئتين؛ فئة تريد تجربة حلويات الشيخ علاء وكنت أنا منهم، مما يعني أننا لن نتناول وجبة الفطور، وفئة أخرى فضّلت تناول فطورها في وقته.

فأحضر الشيخ علاء الجبنة البيضاء وتركها في الماء حتى فترة العشاء - قرابة الاثنتي عشرة ساعة -؛ وذلك ليخرج منها الملح، ثم غسلها مرتين بعد ذلك ليزيل منها أي أثر للملح، ثم قام بتفتيتها ورميها في علبه المربى. وللأمانة فقد كان الطعم لا يختلف كثيراً عما لو تناولناها على الفطور، ولكن الفكرة في حد ذاتها أعطتنا أملاً، وتشوقنا للنتيجة، وانتظرنا اثنتي عشرة ساعة لتناول نفس الطعام، ولكن بكمية ملح أقل، فأحببنا ذلك التغير، وإن لم يختلف الطعم كثيراً، ولكن ذلك الاختلاف البسيط في النكهة في حد ذاته كان يستحق التجربة. ومما ساعد على نجاحها في ذلك اليوم أن أحضر لنا المساعد كمية من الشاي، فقد جعل الشاي من تجربة التغير أكثر روعة، ودخلنا بتلك التجربة إلى مرحلة جديدة وتطور نوعي خاص، شاي وحلويات في نفس الوجبة! ترانا أين نحن!؛ فأحسسنا وكأننا في الخارج!

لم تكن الفكرة هي الأكثر إبداعية، ولكن كانت قيمتها في أنها باقية من أزهار الأمل وخفة الظل في قلب مرحلة من اليأس الخانق كتلك التي أطبقت علينا، وكان يصعب التفكير فيها في أي شيء سوى الكآبة والحزن والبكاء والألم والقهر.

لا زلت أذكر ذلك اليوم، بتفاصيله أكثر من غيره، فالإنسان يستصعب كسر الروتين، ولكن هي محاولة تستحق التجربة دوماً،

ولطالما آمنت بأن التغيير دائماً أفضل (change is always better) ولكن أحياناً لا نرى التغيير الذي نريده، فتتغاضى عنه ونركز في مشاكلنا أكثر، أو نُغشي على أبصار وعينا، ونعتمد سبيلاً واحداً للخلاص من مشاكلنا، مع أنه قد يكون حلها ألف سبيل سواه!

لقد خرج الشيخ من السجن ولا زلت أذكره بكل خير، إنه البطل الخارق، أو الـ super hero الذي كسر روتيننا يوماً ونقل مشاعرنا من مجال الخوف من الموت في كل لحظة، إلى الترقب والانتظار والتشوق إلى صحن الحلويات الذي صنعه لنا في السجن.

وأما ذلك المساعد الذي أدخل لنا الشاي فإنه كان نازحاً من القنيطرة من سكان منطقة حجيرة، وكان يعلم بأن نسبة كبيرة من المعتقلين هم من سكان حجيرة ومنطقة السيدة زينب، فكان يحاول أن يكون مسلماً مع الزنزانة التي تحتوي على معتقلين من تلك المنطقة، ولا أذكر أنني رأيت منه سلوكاً إجرامياً، وكل ما أذكر أنه كان الأقل سوءاً بينهم.

* * *

الكناكري

هو صحفي من مدينة كناكر، قصير القامة، يتكلم ثلاث لغات غير العربية، فهو يتقن الفرنسية والإسبانية والإيطالية، وقد حصل على الماجستير في الصحافة من جامعة برلين في ألمانيا، وهو ذو حنكة ودهاء لم أر مثلهما. كان قارئاً نهماً يحب القراءة ويحيد تفسير الأحلام لنا في المعتقل؛ نخبره بالحلم فيجيبنا بتأويله إن كان حلمًا، أو بتصنيفه كأضغاث أحلام، ويفسره لنا إن كان يقبل التفسير.

وكانوا قد رموه معنا في السجن بعد أن تم اعتقاله على حاجز الفرقة العاشرة في مدينة الكسوة وهو متجه إلى عمله، وكانت تلك المرة هي الثانية التي يتم فيها اعتقاله، وله قصة طويلة وراء ذلك؛ حيث إن اعتقاله كان بتهمة التظاهر، ولكنه لم يكن أحد المتظاهرين. وتبدأ قصته بعد أن اشترى قطعتين من الأرض في منطقة قاحلة بين كناكر والقنيطرة، ثم حاول رامي مخلوف شراءها منه، إلا أن الكناكري شك في الأمر، ورفض البيع، وقد أخبرنا بأنه كان هنالك إشاعة لدى التجار في سورية فحواها:

إن حاول رامي مخلوف شراء أرض ما، فذلك يعني أن هنالك طريقاً دولياً سيُنشأ في تلك المنطقة، وأن سعر تلك الأرض سيتضاعف أضعافاً مضاعفة. وهو شكل من أشكال الفساد في سوريا؛ أن يعلم أكبر تاجر في البلد - وقد كان بالمناسبة هو من يدير أعمال بشار الأسد في ذلك الوقت - بالمشاريع الإنشائية الضخمة قبل أن تبدأ، فيبدأ بشراء الأراضي في تلك المنطقة بسعر رخيص، ثم بعدها بسنة يقفز ذلك السعر إلى ما يزيد على الألف ضعف!

وقرابة عام 2009م بدأ النظام بإنشاء طريق دولي أو ما عرف وقتها بأوتستراد السلام ما بين القنيطرة وريف دمشق، يبدأ من كناكر ويتجه إلى الأراضي المحتلة في الجولان، وهو تمهيد لخطة سلام بين النظام وإسرائيل كانوا قد بدؤوا العمل بها من تحت الطاولة، وبالمصادفة اشترى رامي مخلوف الأراضي المحيطة بذلك الطريق من بدايتها إلى نهايتها؛ ليقم عليها متاجر وفنادق ومعالم سياحية؛ فالنظام كان حريصاً على بناء هذه المعالم على الطرق الدولية، ليس ليحسن صورة البلد، ولكن لأنها كانت تُدر المال عليهم، فتلك المشاريع كانت ملكهم الشخصي.

وقد رفض الكناكري بيع أرضه لرامي مخلوف بما يعادل خمسمئة ألف ليرة سورية لكل دونم أرض (عشرة آلاف دولار أمريكي في ذلك الوقت) ليرتفع السعر بعدها إلى مئة مليون ليرة سورية لكل دونم أي

ما يعادل 2 مليون دولار أمريكي!؛ فتم اعتقال الكناكري أول مرة في بداية الأحداث لمدة خمسة عشر يومًا، وبعد أن أفرجوا عنه طلبه رامي مخلوف لزيارة مكتبه، وتبين بعدها أن رامي مخلوف هو من أمر باعتقاله، وبأنّ الاعتقال كان مجرد «فركة أذن» كي يعرف الكناكري مقامه، وبأنّه إن رفض البيع مجددًا فسيكون الأسوأ من ذلك بانتظاره، وهذا ما قد حدث بالفعل بعد أن رفض الكناكري البيع مرة أخرى، حيث تم اعتقاله مجددًا، ولكن بتهم جديدة من مثل:

- الزواج من فتاة إسرائيلية في ألمانيا،

- العمالة لإسرائيل،

- تمويل المتظاهرين وتزويدهم بالأعلام.

ومن المفارقة المدهشة أن النظام الذي عقد سلامًا تحت الطاولة مع إسرائيل، وكان يحاول إنشاء طريق دولي يربط بين دمشق والأراضي المحتلة، هو نفسه من يحاكم مواطنًا يرفض بيع أرضه لمن يستغلها في إنشاء مرافق لخدمة مثل هذا الطريق!؛ مضحكٌ ومبكٌ في الوقت نفسه أن من باع الأرض هو نفسه من يتهم من يرفض البيع بالعمالة والتخابر! وقد أخذ الكناكري للتحقيق مرة أخرى ونحن في فرع الدوريات ولم يعد، وبعدها بأيام قام الشيخ علاء بسؤال المساعد السؤال التالي:

سيدي، في زميل إلنا هون الله يفرج أسره (قالها مرة أخرى سهوًا)
نسي أواعيه لما طلع من المهجع، وبعدها رفس المحقق الباب وبدأ
يضرب بنا يمنةً ويسرةً وهو يصيح:

الله لا يفرج أسرك وأسره، مفكرين حالكم أسرى يا مخربين يا إرهابيين،
انتو رح تعفنوا هون متلكن متل هالكناكري العميل الخاين، فعلمنا من
كلام المساعد بأن الكناكري في انفرادية ولا يزال تحت التحقيق.

عاد الكناكري إلى الزنزانة بعدما يقارب الأسبوعين وهو لا يقوى
على الحراك من شدة التعذيب، وأخبرنا كيف تم تعذيبه بشتى الوسائل
والطرق حتى أن المحقق أخبره تحت التعذيب بأن «السيد رامي مخلوف»
طلب منه شخصيًا أن يحقق معه ويحبره على البيع.

وفي اليوم الذي يليه حلمت بأنني آكل عنبًا أحمر، وبأن إحدى
عماتي أعطتني مبلغ ثلاثمئة ليرة سورية، فأخبرته الرؤيا، وبشرني بأنني
سأخرج من السجن، وأن عمتي هذه ستعطيني مبلغًا من المال، وقد
تحققت الرؤيا بالفعل وصدق التأويل، فخرجت بعدها بأيام، وبالفعل
قد زارتني عمتي وأعطتني مبلغ ثلاثمئة ليرة سورية.

في صباح اليوم التالي قاموا بإعادة فرزنا إلى إلى مهاجع أخرى، حيث
عزلوا كل من أصابت الدمامل جسده إلى مهجع آخر، وكنت أنا بينهم،
وهناك التقيت بباسم والكسواني ومحمد مرة أخرى.

باسم

التقيت به في الفرع 227، ففي أحد الأيام، فتح باب السجن وقام المحقق برمي شاب نحيف القامة، طوله قرابة مئة وثمانين سنميتراً، طويل الشعر، نصف شعره مخلوق، والنصف الآخر متروك، فترك السجن النصف الآخر من شعره كي يجزّه منه. فتح السجن الباب ثم رماه معنا وقال: خدو هي جبالكن هيفا وهبي - سخرية من شعره الطويل!

كان ذلك الشاب اسمه باسم، من مدينة سلمية، كان يملك شعراً طويلاً، يصل إلى نهاية رقبته، ومجرد الشعر الطويل في ذاته كان جريمة؛ لذلك ترى أكثر أبناء السلك في سوريا يخلقون شعرهم على الصفر، وباسم فوق تهمته كان يملك شعراً طويلاً. وكان المحقق والسجانون ينادونه بـ «هيفا» نسبة إلى هيفا وهبي؛ ليقوموا بإذلاله أكثر؛ لكونه من الطائفة الإسماعيلية، حيث كانوا يعتمدون أبناء الأقليات جنوداً أوفياء لهم، وأي شخص من الأقليات يفكر في الخروج عنهم فجريمته تُضاعف أضعافاً، وكنا نرى ذلك في السجن، حيث كان تعذيب أبناء الأقليات أضعافاً مضاعفة.

ولطالما رَوَّج النظام السوريّ طوال سنين حكمه لكذبة مفادها أنه هو حامي الأقليات في المنطقة، وكأنّ الأقليات قبله كان أبنائها يُذبحون. والأقليات وخاصة أبناء الطائفة الشيعية (شيعة، علويّون، دروز) بالنسبة للنظام السوريّ كان لهم النصيب الأكبر من فرص الالتحاق بالجيش، حيث قام النظام بإفقار قراهم، وتقليل عدد المدارس في فيها؛ ليكون خيار الالتحاق بالجيش هو الخيار الطبيعيّ لهم، والوظيفة البديهيّة لأيّ شخص منهم لا يفكر في أن يكمل تعليمه. وقد كان ذلك بالطبع سلاحًا ذا حدين؛ فإما أن تنضمّ إليهم، أو أن تُضرب بالعصا، وأيّ شخص من أبناء الطوائف يفكر في الخروج عن النظام وانتقاده، كان يختفي ويذهب وراء الشمس، وكان هنالك مثل مشهور يقول بأن المعتقلين من السنّة سيخرجون ولو بعد حين، أما أبناء الأقليات فلن يخرجوا أبدًا.

وقد دامت حفلة استقبال باسم في الفرع لساعتين، وقام كل من في الفرع بضربه وشتمه وجلده، وقد ساهم كونه من أبناء الأقليات في مضاعفة مدة الحفلة لتكون أربعة أضعاف الوقت المتعارف عليه في حفلة الاستقبال.

كما ساهم كون باسم بن أقلية في أن يكون له النصيب الأكبر من التعذيب، ففي إحدى المرات تناوب على ضربه خمسة أشخاص، وجميعهم كانوا يرددون نفس العبارة:

ما نحميكون من هالتكفيريين وما تتظاهروا ضدنا، يا خاين الوطن والدين يا كافر بالطائفي.

كان باسم يُعذب يومياً ، في البداية كان شاباً بريئاً يحاول أن يتكلم لغة المنطق مع هؤلاء الظلمة، وكان ذلك مما يزيدهم غضباً. تخيل أنك تحاول أن تتكلم لغة منطق مع شخص لا يسعده شيء في الدنيا أكثر من ضربك وشتمك وتعذيبك. وفي كل مرة كان يحاول الرد على أسئلة واتهامات المنطق بأجوبة منطقية؛ كان ذلك يزيد من تعذيبه، ومثال ذلك مضمون الحوار التالي:

المحقق: ليش تظاهرت يا باسم؟

باسم: سيدي المحقق لأنو بدنا نعلي سقف الحرية بالبلد، هي البلد كانت من رواد بلدان العالم بالحرية والديمقراطية ولازم نرجعها متل الأول.

المحقق: يعني بتعترف بأنك خاين وعميل يا عر**؟

باسم: لأ يا سيدي، أنا ماني عميل، أنا بحب بلدي ولهيك عم أظاھر حتى تتحسن وشوفها أحسن البلدان.

المحقق: اخرس ولك حيوان، هي البلد عملها السيد الرئيس والأب الخالد، وقبلهن كانت خراب، بيت الأسد هنن يلي عملوها، وقبلهن كانت الأقليات تنشط بالشوارع.

باسم: سيدي هاد الشبي بعمر و ما صار.
 المحقق: ولك عم تكذبني بكل وقاحة، خاين وعميل، وسافر
 بالطائفة وعم تتناول على أسياذك!
 ثم يبدأ الروتين اليومي بالتعذيب، حتى صار أغلب المحققين
 يعرفونه، ويأجرون بتهذيب باسم مع المحقق.
 سألني باسم عن كيفية الانشغال والتفكير بأشياء أخرى أثناء
 التعذيب، فقد كان ذلك إحدى الطرق التي يتبعها البعض أثناء
 التعذيب؛ أن تفكر في أشياء تُنسيك التعذيب، والضرب والشتائم، أن
 تُفكر بأنك في مكان آخر، مع أناس أفضل، أن تنغمس في ذكريات جميلة
 لك تنسيك حالتك الحالية وما تتعرض له من إيذاء وشتم وتعذيب؛
 فمثلا في إحدى المرات التي كنت أعذب فيها، حاولت أن أتذكر يوم
 ذهبت مع أحد أصدقائي لتناول الفطور في أحد المطاعم في منطقة
 الميدان، وطلبنا يومها فولا بالحمض والزيت، وهو ألد طبق فول يمكن
 أن تتناوله، مع الثوم المهروس والليمون، وكأس شاي خمير، وخبز على
 التنور، ثم حاولت أن أتذكر التفاصيل الدقيقة في ذلك المشهد من مثل:
 خبز من التنور، أذكر أن الرغبة الأول كان طرياً، يغمره البياض
 كثيراً، أما الثاني فقد كان يحتوي على قليل من السواد، يبدو وكأن العامل

قد نسيه قليلاً على التنور، ثم أتأمل في أنه ربما يكون ذلك مقصوداً؛ فبعض الناس يحب الخبز قبل أن ينضج بقليل، وبعضهم الآخر يحبه محمراً قليلاً، وذلك كان السبب في وجود رغيفين مختلفين، ثم أتذكر كوب الشاي الخمير، فلونه أحمر داكن، وكان ألدّ كوب شاي تذوقته ليس بالأحمر الداكن المرّ، ولا بالأحمر الفاتح قليل النكهة، وإنما كان بينهما، إنه توازن عبقرى، ومذاق لذيذ، ومتعة خالصة، لا تشوبها شائبة.. ثم أنتقل إلى اللقمة الأولى من صحن الفول، فأخذ قطعة من الخبز وأغمسها في الصحن، وأتناول حبتين من الفول بسرعة؛ كي لا يملأ زيت الزيتون المكان، فإله من تجانس رهيب كان يحدث بين خبز التنور وبين الفول وزيت الزيتون والحمض؛ فخبز التنور كان ألدّ أنواع الخبز مع وجبة الفول؛ يتشرب الزيت والحمض تقريباً، ويحافظ على تجانس اللقمة كي تحمل الفول.

وذكرى كتلك كانت كافية لأن تشغلني عن التفكير بالتعذيب لبضع دقائق، وبضع الدقائق هذه كانت كفيلة بأن تمنحني سبباً للحياة وهمّة للمقاومة، وأن تذكّرني بأن هنالك بالخارج ما يستدعي الصبر والتضحية، على أمل حصول الفرج والخروج للاستمتاع بالحياة الطبيعية.

كانت هذه إحدى أجمل الذكريات التي حملتها من دمشق، إلى أن خرجت من السجن. أمّا الآن فكلما حاولت أن أتذكرها قطعت هذه

الذكرى عصا المحقق وشتائم السجانين، وضربات الكابل الرباعي
والرفس والقمل ورائحة العفن.

سألني باسم عن كيفية الانشغال أثناء التعذيب، فأجبت بـأن يحاول
أن يفكر في أي شيء يشغله عن الرجوع إلى حالته الواقعية، ثم قال
شخص بجانبنا إنه يقرأ القرآن في قلبه، ويعيد قراءة آيات من القرآن
يحفظها فكان ذلك بالنسبة إلى باسم خياراً أفضل؛ وبدلاً من أن يشوش
على ذكرياته الجميلة بالضرب والتعذيب، فإنه سيحاول أن يقرأ شيئاً
من القرآن الذي وإن لم يكن يؤمن به قبل ذلك؛ إلا أنه قد علم الآن أن
القرآن يساعد الإنسان على تعلم الصبر، ويزرع في قلب المؤمن الأمل
في الحياة الآخرة، وأن كل تعذيب يتعرض له ظلماً سينقلب إلى أجر
لصاحبه في الحياة الآخرة، وتعلم باسم سورة الإخلاص وسورة الفاتحة
وصار يرددهما كلما جلس وحيداً.

وعندما كنا في فرع الدوريات، نادى المحقق باسمًا، وقال له: هات
أغراضك وتعال، فطار باسم من الفرحة؛ فقد كانت تلك الجملة هي
بمعنى إخلاء السبيل، وودعني وقال لي:

إن شاء الله رح نظل على تواصل ورح احكي مع والدك وخبروا بس
اطلع، ثم خرج من الزنزانة..

وظننا بأنه خرج في إخلاء سبيل، لكن بعد عدة أيام، فُتِحَ باب الزنزانة، ورمى السجنان باسم معنا من جديد!، وتبين لاحقاً أن المحقق أرسل دورية لإحضار باسم ليحقق معه خصيصاً في الفرع 227!

وأن تُحضرك دورية يعني أنك ستتلقى أبشع أنواع التعذيب إلى أن تصل إلى الفرع؛ حيث يضعون المعتقل في المقعد الخلفي في المنتصف، ويجلس على جانبيه اثنان من العساكر، في كل جهة عسكري، ويتناوب العسكريان على ضربك على الرأس بكل ما أوتيا من وسائل، بالعصي وأخص الرشاش على الرقبة والرأس.

رُمي باسم في منفردة مع أحد عشر شخصاً، وكانوا يخرجونه كل يوم للتعذيب لمدة تتراوح ما بين الساعتين إلى الأربع، وكانت توجه إليه نفس الأسئلة، مشفوعة بالتهديد ذاته والذي كان مضمونه:

بدك السنة يرجعوا يحكموا ويغتصبوا أهلك؟

وقد حدثني كيف أنه صار يقرأ الفاتحة والإخلاص خلال التعذيب، وكيف أن ذلك صار يستفزهم أكثر فيزيدون من الضرب إلى أن يتعبوا.

* * *

حيان

حيان صاحب الوجه البشوش، قليل الكلام كثير التسييح، كان أقصرنا قامة وأشدنا بأسًا، رفض الاعتراف ورفض أن يدلي بأي اسم تحت التعذيب، عذبه المحقق لساعات متواصلة، وقال له المحقق إنه سيجعله يعترف بأنه السبب الرئيس في المظاهرات والتخريب في سوريا إن أصرّ على عدم الاعتراف. وكان جوابه دومًا: ما بعرف.. ساعات من التعذيب والشبح والجلد، وحيان يأبى أن يعترف بأية تهمة.

كان المحقق يعذب حيان بطريقة مختلفة عنا؛ حيث كان يطلب منه الوقوف بجوار الحائط ووجهه إلى الحائط، ثم يقوم بضربه بالأنبوب الأخضر على رأسه؛ ليضرب الأنبوب رأس حيان، ثم يرتطم رأس حيان بالجدار. ساعات من التعذيب المستمرّ، وحيان يأبى أن يعترف بأي اسم للمحقق، مما كان يثير غضب المحقق أكثر.

أن ترفض الاعتراف بأي شيء تحت التعذيب؛ أي شيء يتهمك به المحقق، هو بمثابة التحدي الصريح للمحقق، فالمحقق يعذب، ويتهمك بما يخلو له من تهم، وأنت عليك الاعتراف، وإلا سيقوم بتعذيبك لساعات أو أيام. ويرفض المحقق وكل من في الفرع حقيقة

أن الشعب بريء وأنهم هم الوحوش، وقد كانوا ينظرون إلينا وكأننا مذنبون، ويصرون على التعذيب من مبدأ «إلا ما يكون عامل شي»، وتحت التعذيب ستعترف ليكشفوا أيديهم عنك.

خرج حيان من المعتقل أيضًا قبلي، وعلمت بأنه قد التحق بالجيش الحرّ بعدها مع كتيبة القدم خصيصًا، وأنه استشهد خلال إحدى محاولات الجيش اقتحام منطقة القدم.

رحم الله حيان، رفض أن يؤذي أي أحد، ولم نعرف عنه أنه آذى أحدًا قط، ورفض حتى الاعتراف بأسماء وهمية، كان أقصرنا قامة، ولكنه كان أشدنا وأقوانا.

* * *

اليوم الثامن والأربعون

كان يوما حافلاً، حيث خرج كل من هم أقدم مني في المهجع، وكانوا قُرابة السبعة أشخاص. وبعد قُرابة الساعتين دخل ثمانية عناصر والمساعد المسؤول عنهم وكان اسمه حيدر وهو من الطائفة العلوية من ريف طرطوس، ومساعد آخر هو بوعلي وهو من الطائفة العلوية أيضاً من ريف مصياف، وكلا المساعدين كانا من فئة صف ضابط متطوع في الجيش.

وخروج كل من هم أقدم مني في المعتقل يجعلني الأقدم في المهجع، وعند قدوم الطعام فتح المساعد باب المهجع وصاح: شاوِيش، تعا فوت هالأكل لهاالجحيش -بلهجتة الساحلية-.

لم يخرج أحد فالشاوِيش خرج اليوم صباحاً ولم يعد، فصاح السجان مرة أخرى:

شاوِيس ولك قرد، حيوان ما تسمع هنت وياه -بلهجة ساحلية أغلظ-.

ولم يخرج أحد أيضاً، عندها قال أحد المساجين بأن الشاوِيش خرج اليوم صباحاً.

وبعدها صاح السجنان، ومين أقدم واحد ولك أنت وياه؟
وأجابه باسم بأنه وأنا أقدم الموجودين، ثم أشار إليّ بإصبعه، وأكمل:
سيدي، أنا وهالشب، بس هو أقدم واحد فينا.
فنظر إليّ السجنان، وقال:

إنت هلقُ - بجلجلة القاف - الشاويش، تعا فوت الأكل لهاالجحيش!
فأدخلت الطعام، وبعدها أغلق السجنان الباب، وبدأ جميع السجناء
في النظر إليّ ينتظرون مني أن أقسم الطعام بينهم، وتذكرت كيف كنا
ننظر إلى الشاويش يوم يدخل الطعام، ومنتظر منه أن يقسمه بيننا،
وتذكرت يوم كان الحشاشون يأخذون الحصة الأكبر من الطعام،
وكيف أننا كنا نتحسر على حالنا، ولا نستطيع فعل شيء، والآن قد حان
دوري لأكون شاويشاً..

عددت العدد وحاولت أن أقسم حبات البطاطا بيننا، ولكن كانت
القسمة صعبة؛ كان عددنا يومها قرابة الثلاثة والعشرين شخصاً، بينما
عدد البطاطا سبع حبات، وكيفما حاولت أن أجد قسمة عادلة فإنها
لا تقبل. واقترح أحد الأشخاص أن يأخذ القدامى وعددهم عشرة
معتقلين أربع حبات من البطاطا، والجدد وعددهم ثلاثة عشر شخصاً
ثلاث حبات، من باب أن الأقدمين دوماً يأخذون حصة أكبر، ولأنهم

ذاقوا من التعذيب قسماً أكبر فرفضت ذلك، وقلت بأننا كنا نشكو من ذلك طوال فترة السجن. وفي النهاية انفصلنا إلى قسمين؛ مدنيين وعددنا أربعة عشر مدنيًا، وعساكر وعددهم تسعة، فكانت القسمة كالتالي:

تأخذ كل مجموعة ثلاث حبات ونصف، ولكن المجموعة الأكبر تأخذ النصف الأكبر من الحبة التي قُسمت نصفين.

وبعد الغداء اشتكى الطرفان من الظلم: القدامى؛ وحبستهم أنهم طالما كانوا ينتظرون ليصبحوا قدامى فيأخذوا حصة أكبر من الطعام، والجدد؛ احتجوا بأنهم كانوا يزدون علينا بواحد، ومع ذلك فإنهم قد أخذوا تقريباً نفس الكمية! وللأمانة فكلا الطرفين كان يمتلك حجة، ولكن الحق واحد، ثابت لا يتغير، وأعلم أنها لم تكن القسمة الأشد إنصافاً، ولكنها مع ذلك كانت أقرب الطرق لدرء الظلم عنهم أيضاً.

المساعد بو علي، تبين أنه كان مسجوناً في صيدنايا لمدة ثلاث سنوات بتهمة قتل شخص مدنيٍّ من قريته عندما كان عسكرياً. وعلى حد قوله فإنها كانت جريمة ثأر، وتابع بأن حكم جريمة الثأر هو خمس سنوات للمدني، وثلاث سنوات للعسكري، وفارق السنين سببه هو أن العسكري يتحول إلى سجن صيدنايا، وأن شهراً في سجن صيدنايا هو أصعب من عشر سنين في أيِّ سجن آخر. وللأمانة فإنه صادق في

الطرف الأخير من قوله، فسجن صيدنايا هو ثاني أسوأ سجن في سوريا بعد سجن تدمر، وكلاهما يتصدران قائمة أسوء سجون العالم (اقرأ عن النازي ألويس برونر الذي بنى سجون سوريا)، وأيّ سجن من هذين السجينين كفيّل بأن يسقط أنظمة ويضعها على المقصلة، وينفذ بها حكم إعدام على مرأى من الناس جميعاً.

لكنّ بوعلي لم يكن صادقاً في الطرف الأول من ادّعائه بأن جريمة الثأر حكمها خمس سنين للمدنيّ وثلاث للعسكريّ؛ فلم يكن هناك أيّ قانون يخصّ هذه الجريمة في الدستور السوريّ، وجريمة القتل هي جريمة قتل، إما مع إصرار، أو بدون، أو دفاعاً عن النفس، وذلك هو الفرق، وثلاث السنين التي قضاها في سجن صيدنايا كانت ببساطة ما استطاعت الوساطة التي يملكها أن تنزل الحكم إليها؛ من إعدام إلى ثلاث سنين، وهي على هذا تبدو وساطة قوية للغاية، وبوعلي كان يبدو عليه آثار الهلوسة، وهو طبيعيّ بالنسبة إلى شخص قضى ثلاث سنوات في سجن صيدنايا، وكان يصرخ ويهلوس وهو نائم أحياناً، أو يرتجف كثيراً عندما يسمع صوت شخص يمشي ويقترب من المهجع، وبعد يومين صار يطلب أن يكلم المساعد يومياً عندما يأتي الطعام، وتبين أنه كان ينقل له أخبار المهجع. ولا أعلم ماذا كان ينقل إليه من

أخبار، فقد كان الجميع يتجنب الحديث في السياسة، ومعظم الحديث كان موضوعه حول سؤال: ماذا سنفعل عندما نخرج من السجن؟، وكانت الإجابات تختلف بين من يريد أن يذهب ويتناول صحن فول أو فته الحمص عند الجناني وبين من يريد أن يذهب للمسيح، وبعض آخر كان يحلم بزيارة حمام السوق ويأخذ حمامًا ساخنًا لمدة نصف ساعة تنسيه وسخ الزنزانة، وهذا كان كل الحديث. فما الذي كان يقوله بو علي للمساعد لمدة تتجاوز الساعة يوميًا؟!، هذا للحقيقة هو ما كنا نجهله، ولم يكن لنا من سبيل إلى العلم به.

كيف علمنا أنه كان يفسد علينا؟

تبين فيما بعد أن أحد المعتقلين كان قد تكلم في السياسة، أو زعموا بأنه تكلم فيها، وكل ما قاله ذلك المعتقل هو أنه يجب أن يصدر عفو رئاسي قريبًا بسبب الضغوطات العربية، وبعد أن جاء الطعام وخرج بعدها بو علي مع المساعد كالمعتاد، وبعد قُرابة ربع الساعة فتح المساعد الباب بقوة ونادى باسم الشخص الذي قال ذلك، ثم انهال عليه المساعد بالضرب والشتم والسب، وكان المساعد يصرخ قائلاً:

ولك رئيسنا ما يعمل غير يلي بدو ياه يا أخو المن***، رئيسنا ما حدا بيقدّر بالعالم كلو يضغط عليه يا عر***، رئيسنا العالم كلو مو معبي

عينو يا ابن الم***. مع سباب و شتم ضرب دام لقراءة عشر دقائق، ثم أخذ ذلك الشاب معه بعدها ووضعها بالمنفردة لعدة أيام، وبعد أن عاد أخبرنا أنهم وضعوه بمنفردة صغيرة جداً لا يستطيع فيها النوم، وكانوا يمنعون عنه النوم ما استطاعوا، ويتناوبون على تعذيبه، وكل هذا لأنه قام بتحليل سياسيّ بناء على الأخبار التي سمعناها.

* * *

المساعد حيدر وعناصره السبعة

كتيبة من حرس الحدود، كانوا يخدمون في منطقة البوكمال وعملهم هو مراقبة الحدود، وفي إحدى المرات حاولوا اعتراض مجموعة من المهربين، ولكن المهربين فاقوهم عددًا وسلاحًا، فقام المهربون بعدها بأخذ سلاحهم. وفي اليوم التالي جاءت دورية واعتقلتهم جميعًا وتم تحويلهم إلى دمشق فرع الدوريات تحديدًا. وقد تكلمت مع المساعد حيدر بعد أن دخل معنا السجن عما آل إليه الحال بهم، كان شخصًا طيبًا على عكس بو علي، وكان يحدثنا بالسياسة، ولكونه يُعَدُّ نفسه مؤيدًا فقد حدثنا بالحال في الخارج، وقال بأن مصدر أخباره هو قناة المنار الموالية لحزب الله، وقناة الـ BBC. والصراحة يمكن أن تعلم من لغة الخبر إن كان مصدره المنار أو BBC، وأخبرنا بأننا آخر معتقلي الرأي في سوريا، وبأن عفواً رئاسيًا سيعلن قريبًا للتأكيد على المبادرة العربية، وبأن الإعلام سيصبح منفتحًا للجميع، وبأنه سيسمح لجميع القنوات الإخبارية بفتح مكتب لها في سوريا عدا قناتي الجزيرة الإخبارية والعربية. حتى أنه قال بلهجته الساحلية:

يعني أبعرف ليش هالدولي ما تعتقل هالناس يلي ما تعبر عن رأيها،
ما طول عمرو الكلب يلي بعوي ما بعض.

جملة مفادها أن كثيري الكلام هم أناس عديمو الأفعال.
كان المساعد حيدر مؤيداً للنظام، بريئاً من القتل، يملك سقفاً لحرية التعبير أكثر من أسياده، وصل بتعليمه إلى الصف التاسع (الثالث الإعدادي) ولكنه رغم ذلك أدرك بأن حرية التعبير شيء لا بد منه في بلد يمتلك أطياًفاً متعددة، وهي قد تنوعت في الديانات والطوائف والأعراق.

كان سَمَحاً ضحوكاً، يتكلم مع عناصره وكأنهم إخوته الصغار، ويحاول أن يواسيهم كلما سنحت له الفرصة. أذكر أن أحد العناصر تكلم بلهجة عالية يوماً وقال بلهجة بدوية:

يعني ما أدري وش تبي الدولة منينا، رمونا ع الحدود تا نوقف المهرين وأنطونا بواريد والحز المهرين عنديهم رشاشات فوق البكمات والله يوم نطخ طلقة ينزلوا علينا 500، وحاول المساعد حيدر أن يفهم العسكري أن الاعتقال كان بسبب أن العناصر خسروا بندقيتهم، والقانون في الجيش بأن العسكري يخسر شرفه عندما يخسر بندقيته، ولم يدم على ذلك إلا بضع ثوان حتى قاطعه أحد المعتقلين المدنيين بقوله:

طيب وين حماية الشعب الأعزل من الشرف العسكري؟ مو شغلة الجيش حماية الوطن، والوطن هو الشعب؟

وعندها دهش المساعد حيدر ولم يعرف بماذا يردّ، لكنه قال بعدها بقليل: نحن كتيبة حرس حدود، عملنا حراسة الحدود لا أكثر، ولا علاقة لنا بما يحصل في الداخل.. علم المساعد حيدر أنه لا يستطيع الإجابة بالقبول على ذلك، وأن أسلم جواب له هو أن يتهرب من الإجابة نفسها، وذلك هو ما قام به تحديداً. كان يملك حدساً سياسياً، ويعلم أن أفضل جواب سياسي لجرم ارتكبته فعلاً هو ببساطة التهرب من الإجابة، ولكن أسياده لم يعلموا بذلك، فكانوا يُردّون التهمة على المتهم، ويتهمون الضحية بالإرهاب، ثم يحققون مع الضحية تحت التعذيب، ثم يحاكمون الضحية وأهل الضحية وجيران الضحية بما يرونه مناسباً لفعلة الضحية.

وما هي إلا عدة أيام حتى علمنا بأن بشار الأسد قد أصدر عفواً رئاسياً وشمل جميع معتقلي الرأي في سوريا، في إطار تسوية أممية، حيث يقوم النظام السوري بإخراج معتقلي الرأي مقابل رفع عقوبات اقتصادية عنه وعن الشخصيات المقربة منه، بتاريخ 15/1/2012 بغفو رئاسي يفترض أنه شمل جميع معتقلي الرأي.

لم نكن لنصدق ذلك، خصوصاً بعد المسرحية التي حدثت قبل خروجنا من الفرع 227، والولايات والتعذيب الذي حل بنا بعدها. وفي تلك الليلة فتح المساعد الباب، وصار ينادي كل سبعة أشخاص

سويًّا ويقول: هات كل أغراضك معك، مما يشير إلى أنه إما أفراج، أو تحويل لفرع أمني آخر، إلى أن نادى المحقق اسمي فاختلطت مشاعري بين فرح بالخروج من المعتقل وخوف شديد من تحويلي إلى فرع أمني آخر.

وأخبرت باسمًا بأننا سنبقى على تواصل.

وبعد أن خرجت من المهجع، تم كلبشتنا كلبشة خفيفة، عكس الطريقة الشديدة التي تمت كلبشتنا بها يوم خرجنا من الفرع 227، مما أعطاني قليلًا من الطمأنينة، وعند الباب كالعادة صاح الحاجب، راسك على الأرض وامشي لقدام. إلى أن وصلنا إلى الباص حيث ركبنا فيه، وكان نفس الباص الذي حملنا من الفرع 227 إلى هنا باص ذو الـ 24، نوافذه مظلمة بالأسود، وعليها من الداخل ستائر داكنة تحول بيننا وبين العالم الخارجي. وركب سبعتنا في الباص على عكس ما قدمنا، حيث كنا ما يزيد على العشرين يوم أحضرونا، والآن نحن فقط سبعة أشخاص. وبدأ الباص بالتحرك، وبعد قرابة ثلث الساعة من التسبيح والدعاء توقف الباص عن الحركة، واسترق أحدنا النظر إلى الخارج ثم قال:

هاد الفرع 225، شكلنا مارح نشوف الضو، ثم بدأ بعضنا في البكاء الشديد، ومرت دقيقتان بعدها وبدأ الباص بعدها بالتحرك من جديد إلى أن توقف، ثم أكد لنا الشخص ذاته أننا عدنا إلى الفرع 227، مما

يعني بأنه إخلاء سبيل، وبالفعل، وصلنا إلى الفرع ولم يتعرض لنا أحد، وطلبوا منا الذهاب إلى المهاجع، في هذه المرة كانوا مسالمين على غير عادتهم، وأدخلونا سراديب الفرع 227 إلى أن وصلنا إلى المهجع، وسجد كل منا سجود الشكر، ثم صلينا العشاء وقيام الليل لكوننا وصلنا سالمين، وبعد قُرابة الساعة نادى السجان باسمي فخرجت، وإذا بالمحقق ينتظرنى معه، وطلب منى المحقق التوقيع على أقوالي، ثم قال: ياسر، ما بدياك تعيدها، هي آخر مرة، هزرت رأسي بالقبول وأنا لا أعرف مقصده حتى، آخر مرة ماذا، وأنا لم توجه لي أية تهمة، ولم يكن هنالك أي دليل على قيامي بشيء... هزرت رأسي مرة أخرى، ثم وقّعت على أقوالي التي لم أقرأها، وعلى اعترافاتي بالأشياء التي لم أفعلها، ثم عدت إلى زنزانتى.

في الصباح، وقُرابة الساعة الثامنة، نادى المحقق باسمي، وأخذني إلى غرفة الأمانات لاستلام حذائي و معطفي الشتوي، ثم طلب منى أن أتوجه إلى الخارج، وهنالك كان باص من نوع مختلف ينتظرنى، نوافذه غير مظلمة، ولا توجد عليها ستائر تحجب رؤيتنا، وتوجه الباص بنا إلى القصر العدليّ بالقرب من سوق الحميدية، فدخلنا القصر العدلي، وبعد دقائق وقّعنا على أوراق لا أعلم محتواها، ثم أخرجونا إلى باص نقل داخليّ وقالوا لنا بأننا سنذهب إلى سجن عدرا، ومن هناك سنخرج.

سجن عدرا

هو سجن مدنيّ يقع في منطقة عدرا، وهو الأكبر في سوريا من حيث المساحة وعدد المساجين، حيث يُنقل إليه كل المتهمين المدنيين بتهم جنائية بعد أن يحكم القاضي عليهم.

في الطريق إلى سجن عدرا قابلت أناسًا قدموا من أفرع مختلفة، وصرنا نتحدث عن الطريقة التي عُدّب كل شخص منّا بها. وعلى سبيل المثال؛ جلس بجواري أحد المعتقلين في فرع كفر سوسة وتحدث إليّ عن طرق التعذيب عندهم وما حصل لهم في المعتقل، فهذه الأحاديث كانت الـ "icebreaker" لدينا وسبيلنا في التعارف.

وأبشع طرق التعذيب التي سمعت بها كانت في فرع كفر سوسة، فالشبح مختلف في ذلك الفرع، حيث إن من ليس له تهمة كان يُشبح بالحبل، وبالسلك الفولاذ من الإبهام لمن له تهمة.

وأحاديث الناس عامة عندما يلتقون بأشخاص جدد تبدأ بالاسم والمسكن والشهادة الجامعية، ثم الوظيفة فالحالة الاجتماعية، أما نحن المعتقلين فكنا نبدأ الحديث مع الأناس الجدد بالاسم، ثم الفرع الذي اعتقلنا به، ثم طرق التعذيب الذي عُدّبنا بها، هذا الأسلوب في الحديث

كان يبعث على الطمأنينة مع المتحدث؛ أن تتكلم مع شخص تعرض لنفس الكارثة التي تعرضت لها، شخص شارك الضراء وذاق المر معك، نبي من ذلك علاقة من نوع مختلف فيما بيننا؛ فنحن شركاء في التعذيب، شركاء في الجوع، شركاء في المرض وقلة الدواء، إنه شريك يملك نظرة حقد كالتي تملكها على من ظلمك، ويصعب على أي شخص أن يملك تلك النظرة إن لم يتعرض لنفس التوقيف، ولنفس المعاملة السيئة التي تعرضت لها، فتلك الأيام من التعذيب والسب والشتم كانت كفيلة بأن نحقد على من عذبنا وتسبب في كسر روحنا، وهي أيام كانت كفيلة بأن نحقد على أساسهم ما حيننا.

وصلنا إلى سجن عدرا، ثم فُرِزنا إلى زنانات مختلفة، وبعد قُرابة الساعتين، نادوا باسمينا وخرجنا جميعاً إلى ساحة في السجن، ثم جاء اللواء المسؤول عن السجن وخطب بنا، حيث بدأ بترديد شعار حزب البعث، ثم هتف لبشار وطلب منا أن نردد وراءه، ثم أخبرنا بأن العفو الرئاسي شمل جميع المعتقلين السياسيين ومعتقلي الرأي، وبأن الصحافة العالمية قد سُمح لها بالدخول إلى سوريا، ثم أردف بأنهم خارج السجن وسوف يقومون بسؤالنا عن أحوالنا، وطلب منا إن كنا نملك حباً للبلد أن نقول: «سوريا بخير»... فيا لهم من مغفلين ويا لهم من أغبياء!، لا

يعرفون إلا السب والكذب والقهر، أبعد كل ما حدث لنا وفعلوه بنا يطلبون منا أن نكذب أيضًا بحجة «حب البلد»، فأين كان حب البلد عندما قُصفت المدن والقرى؟

أين كان حب البلد عندما قُطع الدواء عن المناطق التي هتفت ضد النظام؟

أين كان حب البلد عندما باعوا لواء إسكندرون لتركيا؟

أين كان حب البلد عندما تنازلوا عن الجولان؟

أين كان حب البلد عندما جُلدنا بدون سبب؟

أين كان حب البلد عندما حُرمتنا من أبسط حقوقنا؛ حق التعبير عن الرأي؟!.

لسنا مخربين ولا مهندسين، وإنما نحن مصلحون، وطالبنا بإصلاح البلد، ومحاسبة الفاسدين، وإخراج معتقلي الرأي من السجون، فقبولنا بالسياط والعصي والجلد والسب والقذف..

خرجت من باب سجن عدرا لأجد العديد من القنوات الإخبارية تنتظرنا عند البوابة، واقتربت مني مذيعة الـ BBC وسألتني عن حال المعتقلين وطرق التعذيب وأسماء المعتقلين وأسماء لأشخاص ماتوا تحت التعذيب، فنظرت إليها وقلت في نفسي:

سيدتي أحتاج لأيام وأيام لأسرُد ما حدث، منا من مات تحت التعذيب، ومنا من عذب حتى فارقت روحه جسده، ومنا من تمنى الموت لينتهي التعذيب، ومنا من وقّع على أقوال لم يقلها، وعلى أفعال لم يفعلها أو يسمع بها. أسئلتك سيدتي تحتاج لأكثر من مقابلة عابرة؛ حتى أتمكن من أن أجيبك على استفساراتك.

وهزرت رأسي ومشيت إلى نهاية الشارع، فوجدت محمدًا هناك ينتظرني، وجلسنا عند الكشك القريب. ثم خرجنا من السجن سويًا، وجلسنا عند الكشك القريب من سجن عدرا، فطلب هو باكيت دخان حمرا طويلة، وأما أنا فقد طلبت رصيّدًا لأشحن هاتفي. ودخن سيجارته بعمق وقال: طلّعنا والسجن صار ماضي، بس والله لردّ لهن ياها. والتحق بالجيش الحر بعدها، ولم أسمع عنه أيّ خبر بعد ذلك.

وبعد خروجي من السجن ببضعة أيام، ذهبت إلى منزل باسم. ضغطت على الإنترفون، فردّت عليّ سيدة بدا من صوتها أنها والدته، وقالت:

- مين؟

قلت:

- مرحبًا، أنا ياسر. باسم موجود؟

اختفى الصوت للحظات، وكأنها ترددت في الإجابة. ثم سمعت صوت رجل كبير في السن، يبدو أنه والده، يجيب بصوت مبحوح:

- مين معي؟

أجبت سريعاً:

- أنا ياسر... باسم موجود؟

ساد صمت للحظة، قبل أن يأتي صوته مرة أخرى، هذه المرة بحذر أكثر:

- يعني... انت بتعرفو؟

عندما سألني ذلك، أدركت أنهم يحاولون إخفاءه عني، ولهم كل الحق في ذلك. فقدوا ابنهم، قرّة عينهم، لفترة طويلة، ويبدو أنهم أصبحوا أكثر حرصاً عليه، كأنه وُلد من جديد، يحملانه ويخافان عليه كما لو كان طفلاً رضيعاً.

بدأ صوت الوالد يخفت شيئاً فشيئاً، وكأنه يتعد عن الميكروفون. ثم رأيت رجلاً وامرأة يخرجان على عجل من شقة أظنها شقة باسم وأهله. كانت والدته ترتدي الحجاب، كأَيّ أم دمشقية، لكن على عكس العادة، لم يكن مُصَفِّفاً، وهندامها غير مكوي. نساء الشام غالباً ما يرتدين حجاباً أبيض مكويًا وجلباباً أسود أنيقاً، أما هي، فبدا عليها

التوتر، وكأنها ارتدته على عجل دون أدنى اكتراث لمظهره، كما لو أن سماع اسم ابنها كان كافيًا لتمحو كل التفاصيل الأخرى من وعيها. رأيت والدي باسم يتزاحمان على الخروج، كالغارقين في نهر يحاولان السباحة نحو الضفة، نظراتهما إليّ كانت أشبه بكوني قارب النجاة، أو طوق الأمان الذي يسبحان نحوه بكل ما أوتيا من قوة. كان الأب يسبق أحيانًا، ثم تعود الأم لتسبقه، وكأنهما يسابقان الزمن للوصول إلى الحقيقة أولاً.

في تلك اللحظة، أيقنت أن باسم لم يخرج من المعتقل. وأن العفو الرئاسي لم يشمل، لأن العفو لم يكن لأبناء الأقليات. وصلا إلى باب البناية ليفتحاه لي، والدموع تترقق في أعينهما، ثم بدأ سيل الأسئلة:

- يعني... انت بتعرفو؟

قاطعت الأم سؤال الأب بسؤال آخر، بلهفة مشتعلة، وصوت يفيض بالشوق، وكأنها تتشبث بأي خيط قد يوصلها إلى ابنها:

- إيمنت آخر مرة شفتو؟ كيفو؟ كيف صحتو؟

ثم قالت بصوت حنون، والدمعة تنزلق على خدها، وكأنها ترجوني أن أحمل لها بعض الطمأنينة:

- تفضل، تفضل، ابني...

دخلت وجلست مع والديه ربع ساعة. كانا طيبين جدًّا، بسيطين للغاية؛ كأبي والدين فقدوا ابنهما ولا يعلمان عنه شيئًا.

بعد دقائق، جاءت والدته تحمل صينية عليها فنجانان من القهوة وقطعتان من الكيك، وضعتهما أمامي برفق، ثم نظرت إليّ بحزن وقالت:

- برضاي عليك يا ياسر، هاي حصتك وحصّة باسم، بدي ياك تخلصهم.

أدركت حينها أنها لم تكن تقدم لي القهوة والكيك كضيافة عادية، بل كجزء من طقس قديم لم تتخلّ عنه رغم غيابه. اعتادت أن تعد القهوة وتقدم الكيك عندما كان باسم يستقبل أصدقاءه في المنزل، وكأنها تحاول الإبقاء على عاداتها كما كانت، لعلها تخلق وهماً للحظات أن ابنها لا يزال هنا، يجلس معنا، يحتسي قهوته، ويتناول قطعه من الكيك.

في تلك اللحظة، لم يكن بإمكانني رفض طلبها. أخذت قطعة الكيك الأولى، ثم الثانية، واحتسيت القهوة ببطء، بينما هي تنظر إليّ وكأنها تبحث في ملامحي عن شيء من باسم... أخبرت والدته بأنه بصحة جيدة، وطمأنتها بأنه لم يتعرض للتعذيب منذ فترة طويلة، فأعطاه

ذلك شعورًا بالطمأنينة قليلًا، لكونها تأكدت أنه لا يزال على قيد الحياة، وأنه بصحة جيدة. كانت هذه الكلمات كنسمة هواء رطبة وسط صحراء الخوف التي تعيش فيها منذ اختفائه.

لم تسمع أيّ خبر عنه منذ قرابة الشهرين، فكان ذلك الخبر لها بمثابة الفرج، وكأنه قبس من نور يتسلل إلى ظلام قلبها المثقل بالقلق. لم تكن تعلم شيئًا عن ابنها؛ أين هو، ولماذا اختفى، وكيف اختفى! كانت تعيش في دوامة من الأسئلة، بلا إجابات، بلا يقين، فقط انتظار طويل ينهش روحها ببطء.

أغمضت عينيها للحظة، ثم تنهدت بعمق، وكأنها تحاول أن تحفظ في قلبها كل حرف نطقته، كأنها تخشى أن يتلاشى هذا الخبر كما تلاشى من قبل كل أمل علقتّه على أبواب الانتظار. ثم فتحت عينيها مجددًا، ونظرت إلى نظرة امتنان، نظرة أم لم تلتق بابنها، لكن كلماتك منحتها للحظة شعورًا بأنه قريب، قريب بما يكفي ليجعل قلبها يخفق بالحياة من جديد.

امتدت يدها المرتجفة لتدفع فنجان القهوة قليلًا باتجاهي، وقالت بصوت متهدج لكنه دافئ:

- خذ يا ابني... اشرب قهوتك، والله يجعل كلامك صحيح يا ياسر، والله يسمعنا عنه خبر طيب...

في تلك اللحظة، أدركت أنني لم أكن مجرد زائر، كنت رسول أمل، حتى لو كنت أتمسك بذلك الأمل بالكلمات فقط، حتى لو كنت أخشى أن ينقلب إلى سراب في أي لحظة.

جلست معها ومع والده لبضع دقائق أخرى، قبل أن أستاذن بالرحيل. وقفت عند الباب، فوجدتها تتابعني بنظراتها، كما لو كانت تخشى أن يكون رحيلي نهاية لهذا الخيط الرفيع من الأمل الذي تمسكت به اليوم.

وقبل أن أغادر، قالت بصوت بالكاد سمعته:

- إذا سمعت عنه شي... لا تنسانا، الله يرضى عليك، الله يرضى عليك...
عليك...

أومأت برأسي، لكنني لم أستطع النطق بكلمة. تخيلت في تلك اللحظة شعور والدتي وأنا داخل الزنزانة، وكمية حزنها وقلقها. كلاهما، والدتي ووالدة باسم، اعتُقل ابناهما، وكلاهما تتوقان شوقاً لسماع أي خبر طيب عن فلذتي كبدهما المغيّبين في السجون.

لم أستطع أن أتحمل المشهد. سألت دمعتي رغماً عني، فأسرعت في ارتداء حذائي وخرجت على عجل، محاولاً ألا تظهر مشاعري أكثر. قلت لهما قبل أن أغلق الباب خلفي:

- سأخبركما فور سماعي أي خبر عن باسم... أعدكما بذلك.

خرجت من باب المنزل، وأنا أحمل ثقل دعائها، وذكريات السجن العفن التي كنت قد ظننت أنني نسيتهها. لكنّ هذا اللقاء أعاد إليّ مرارتها ورائحة العفن، وكآبة المنظر، وأصوات التعذيب التي كنت أظنها قد خفتت في ذاكرتي، لكنها كانت ساكنة هناك، تنتظر لحظة كهذه لتطفو مجددًا على السطح.

ثم إنني عدت وزرتهم قبل أن أغادر دمشق، وتبين لي أن باسمًا لم يخرج من السجن بعد. كان وجه والدته أكثر شحوبًا، وكأن الأيام التي مرت دون خبر عنه قد زادت عمرًا فوق عمرها. رجتني بلهجة محمّلة بالرجاء واليأس معًا:

- إذا عندك وساطة يا ابني، حاول تسأل عنه... نحنا مندبر المبلغ. شعرت ببعجزي أمام توسلاتها، فأخبرتها أنني سأحاول جهدي. وبالفعل، أخبرت والدي بذلك، وقام بدوره بسؤال ضابط كبير كان قد ساعد في إخراحي من السجن مقابل رشوة تلقاها. لم يكن لديّ أمل كبير، لكن الرد جاء أسرع مما توقعت.

قال الضابط بلا اكتراث:

- لا أستطيع أن أتوسط لأيّ شخص من الأقليات.

يا لها من مهزلة!

هم الذين يدعون أنهم مُحَمَّاة الأقلّيات، وهم الذين يمنعون الوساطة من أجلهم، وهم الذين لا يمدّون لهم يد العون حتى لو دفعوا الثمن.
أي نفاق هذا؟ أي ظلم أقسى من أن تكون حياتك وحريتك مرهونة بهوية لا يد لك في اختيارها؟

حاولت زيارة بيتهم مرات عدة، لكنني في كل مرة كنت أتوقف قبل أن أضغط على الجرس. أفف هناك، أحّدق في الباب وأتساءل: ماذا سأقول لها هذه المرة؟

كيف أطمئن قلبها، وأنا أعلم يقيناً حجم العذاب الذي تعرض له؟
كيف أخدعها بكلمات مطمئنة، وأنا أدرك المصائب التي كانت تنهال عليه، لا لشيء إلا لأنه من الأقلّيات؟

أأخبرها أنهم كانوا يعذبونه أكثر من غيره، ليس لأنه ارتكب جرماً، بل فقط لأن انتماءه جعلهم يرونه مستهدفاً؟

أأحكي لها عن المحققين الذين كانوا يتناوبون عليه بلا رحمة، وكأنهم يتسابقون في إيلاّمه؟

أأقول لها إنهم كانوا يُضَبّون عليه أضعاف العذاب، لا لشيء إلا لأنه لم يكن يشبههم، لأنه كان مختلفاً؟

كيف أخبرها بذلك، وهي التي تعيش على بصيص أمل، تشبث بأي خبر، بأي كلمة، بأي كذبة قد تمنحها بعض السكينة؟ كيف أنظر في عينيها وأقول لها إن ابنها لم يكن مجرد معتقل، بل كان هدفًا مفتوحًا لأشد أنواع العذاب؟

صارت زيارتهم حملًا ثقیلاً على صدري. لم أعد أحتمل أن أكون ذلك الوجه الذي يذكرهم بجرحهم، ذلك الاسم الذي يعيد إليهم ألم ابنهم الغائب المغيب في أقبية لا ترى النور.

كلما اقتربت من بابهم، كنت أشعر أنني أحمل فوق كتفي حزنًا أكبر من قدرتي على احتماله. كنت أقف للحظات، أهدق في الجرس، ثم أعود أدراجي، بينما دمعة باردة تنساب على خدي...

وبعد عدة أشهر علمت بأن النظام يسأل عني من جديد، فتركت دمشق وعدت إلى درعا حيث الاعتقالات محدودة، ولا تحدث إلا عند المرور على حواجز النظام.

وقد التقيت بقاسم عن طريق المصادفة، كان ذلك في شهر حزيران عام 2013م في مدينة جاسم، كنت أتمشى مع والدي، ورأيتة أمامي، فقلت لوالدي تعرف من هذا الشخص؟، فقال: لم أره يومًا في حياتي. وسلمت على قاسم سلام المشتاق ودمعت عيناى وعيناه، وعندها قال

والذي صوته يشبه الصوت الذي كلمني وأخبرني أنك بخير، وكان
والذي لا يزال يتذكر ذلك الصوت؛ إنه الصوت الذي أعاد له الأمل
في خروجي من السجن، وأن جهوده لم تضع سدًى؛ ليعطيه ذلك دافعاً
أكبر للاستمرار في المحاولة.. تكلمت مع قاسم كثيراً، وسألته مازحاً
عن ذقنه، وقلت له: شوي سلفي، شكلو المحقق كان معو حق،

ورد قاسم: الله يلعنوا والله كل ما زبط دقني بتذكر كيف نتفلي ياها،
والله ما عم أقدر أنسى، الحمد لله يلّي طلعنا من السجن، وعقبال كل
المعتقلين.

خرج قاسم من المعتقل ولا زالت ذكرى نتف المحقق لذقنه لا
تفارقه، بل إنه كان يتذكرها لحظة بلحظة كلما حاول تشذيب ذقنه.

كانوا يحاولون أن يدنسوا أفكارنا بسوداويتهم؛ حتى يكون ذلك
رادعاً لنا في المستقبل، ولكنهم بذلك جنّوا العكس، لم يزدنا ذلك إلا
حقداً عليهم ما حيننا.

غادرت سوريا بطريقة غير شرعية في 24/7/2014م وتوجهت إلى
الأردن، خرجت من السجن ولا تزال أصوات التعذيب في ذاكرتي،
ترفض المغادرة، وتقاتل لتكون ذاكرة محفورة على جدار ذهني، وجزءاً
لا يتجزأ من كياني، شاهدة بأنني ذلك المعتقل المرمي في زاوية المهجع

ج3 الذي يحاول أن يواسي كل معتقل يبحث عن الأمل بين جدران السجن.. خلف القضبان..

لذلك كتبت إلى أولئك..

الذين دخلوا سرايب الأفرع الأمنية ولم يخرجوا بعد،

والذين تعرضوا لأبشع أنواع التعذيب ولم يعلم بهم أحد،

والذين نسيهم الناس،

والذين دخلوا سرايب الأفرع الأمنية ولم يذكرهم أحد،

والذين خرجوا ولازمتهم ذكريات المعتقل ولم ترحل عن ذاكرتهم أبداً..

وإلى الباحثين عن الحقيقة في كل زمان ومكان،

وإليك أنت تحديداً يا من تطالع سطور محتتي..

أقصّ عليك ما قد حدث!

إِخْلَاءُ مَسْئُولِيَّةٍ

جميع الشخصيات الواردة في هذه الرواية حقيقية، وجميع الأحداث المذكورة وقعت بالفعل خلال فترة اعتقال في فرع الأمن العسكري ٢٢٧ وفرع الدوريات، وأنا شاهد مباشر عليها.

تم تعديل أسماء الشخصيات بناءً على صفاتهم الحقيقية، وذلك لأن الرواية اكتملت في عام 2022. لقد بذلت قصارى جهدي في تغيير الأسماء لحماية المعتقلين، إن كانوا لا يزالون على قيد الحياة، في حال سُرّبت الرواية إلى نظام الأسد، ولتجنب ذويهم أي أذى نفسي قد يسببه الاطلاع على هذه الشهادة.

أتمنى أن تكون شهادتي هذه خطوة نحو محاسبة نظام الأسد وأعوانه، وأسأل الله القبول. أشهد أمام الله أنني نقلت كل ما حدث بصدق وأمانة، دون أي زيادة أو تحريف.

* * *

خَاتَمُ الْبَشِيرَةِ